الطبعة 3

الكويت قبل النفط

مذكرات س. ستانلي ج. ماليري

الطبيب في البحرين والكويت

1907 - 1947

ترجمة وتقديم

أ. د محمد الرميحي




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

الكويت قبل النفط

مذكرات س. ستانلي ج. ماليري

الطبيب في البحرين والكويت

1907م — 1947م

ترجمة وتقديم: أ.د محمد الرميحي

الكتاب: **الكويت قبل النفط**

مذكرات س. ستانلي ج. ماليري الطبيب في البحرين والكويت

1907م – 1947م

ترجمة وتقديم: **أ.د محمد الرميحي**

التصنيف: **مذكرات**

الناشر: دار **مدارك** للنشر

الطبعة الثانية : 1997

الطبعة الثالثة : مارس (آذار) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 034 - 7



Madarek Publishing House
دار مـدارك للنشـر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:
مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي – الإمارات العربية المتحدة
P. O. Box: 333577 Dubai - UAE
Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178

بيروت:
فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت – لبنان
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

ترجمة وتقديم:

أ.د محمد الرميحي

الكويت قبل النفط

مذكرات س. ستانلي ج. ماليري

الطبيب في البحرين والكويت

1947 – 1907

الفهرس

الكويت

ملاحق

الفهارس

مقدمة الطبعة الثالثة

مائة عام على الرسالة

تأتي الطبعة الثالثة من كتاب «الكويت قبل النفط» هذه المرة من إصدار «دار مدارك»، التي أخذت على عاتقها بعث التنوير في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، وللكتاب قصة تُروى، فالعنوان هو من اختيار المترجم، وليس عنواناً للنسخة الأصلية الإنكليزية (التي كانت ببساطة مذكّرات الدكتور ميلليري)، الذي تركه كاتبه مطبوعاً على الآلة الكاتبة، في أرشيف مكتبة «دراسات الشرق الأوسط» في جامعة أكسفورد البريطانية.

ويرقد رُفاة الدكتور الدكتور شارلز ستانلي ميلليري في مقبرة محشورة بين ناطحات السحاب في العاصمة الكويتية، ويتذكّره قليلون، وهي مقبرة المسيحيين القديمة التي كادت أن تندثر، حيث دُفن، وليس بعيداً منه يقف مبنى مُجدّد للإرسالية الأمريكية، سُمّي باسمه القديم «الأمريكاني»، ليتحوّل إلى معلم ثقافي مهم في دولة الكويت الحديثة، حيث يحوي كنوز التراث الإسلامي التي تحتفظ بها دار الآثار الإسلامية.

وبين البُعدين التاريخيين خيطٌ رابط بالاهتمام بالانسان، من حيث العناية بصحته وثقافته.

وصل الدكتور ميلليري إلى الخليج مُبكراً، في العقد الأول من القرن العشرين، وهو بريطاني التحق متطوّعاً بالبعثة العربية للإرسالية الأمريكية من الكنيسة الإصلاحية، التي انتشر دُعاتُها حاملين الكتاب المقدّس بيد والتطبيب بيد أخرى، في نهاية القرن التاسع عشر، بمحاولة، كما قال منظّروهم الأوائل، لـ "تطويق منابع البعثة الإسلامية في مهدها»، أو هكذا تصوّروا، لتبدأ سلسلة من مواقع التبشيريّات من البصرة في شمال الخليج إلى مسقط في جنوبه، إلا أنها كلها لم تستطع – على الرغم من كل الجهود – أن تحوّل أحداً من «هؤلاء البدو الجهلة إلى النصرانية»، على حد قول مؤرخ عربي زار المنطقة في بدء العشرية الثانية من القرن العشرين، وهو أمين فارس الريحاني.

بدأ ميلليري عمله الطبي في البحرين ضمن الإرسالية الأمريكية هناك، وكتب وقتها في عام 1907 يقول: «تفشّي الأوبئة ومرض الطاعون في البحرين مثل النار في الهشيم، ومات في غضون ساعات مئات المرضى». استقر ميلليري في الكويت عام 1911، أي قبل مائة عام من اليوم، واستمر فيها حتى عام 1945، سنة وفاته، وكتب مذكّراته التي تُمثّل هذا الكتاب، وهي عبارة عن انطباعات لكاتب غير متخصص لا بالكتابة، ولا بعلم الاجتماع، بل كعادة الغربيين الذين وطِئت أقدامهم هذه الديار كان يُلذُّ لبعضهم تدوين أفكار اطّلع على بعض أحداثها،

وقد يكون هذا الحدث رآه من زاوية معيّنة، ولم يعرف له تفسيراً في وقتها.

إلا أن من عمل في الإرسالية الأمريكية على مر الزمان الطويل، وهو سلسلة من الأطباء، قد تركوا لنا أثراً، أو أكثر، من الآثار المكتوبة، فكثير من الأطباء قد فعلوا ذلك في كتب منشورة ومُتاحة للجميع، بل وقد أصدرت الإرسالية مجلة منشورة بعنوان «العربية المنسية»، وهي متوافرة اليوم، نشر فيها مبعوثوها ملاحظاتهم العامة على مشاهداتهم في دول الخليج، وتُعدّ مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الخليج الحديث، إلا أن مذكّرات ميلليري لم تكن مُتاحة في كتاب، ومنها تأتي أهميتها التاريخية.

كما قلت، رقدَتْ مذكرات ميلليري طويلاً في أرشيف مكتبة جامعة أكسفورد للدراسات الشرقية، حتى عثرتُ عليها في أثناء بحثي في بداية سبعينيات القرن الماضي عن مواد لأطروحة الدكتوراة التي كنت أُعد لها في وقتها. استأذنت أن أصوّر نسخة من المذكّرات لعل فيها شيئاً يفيد دراستي، فكان الاكتشاف الذي لو قدّر أن يبقى هناك لبقي ربما فترة طويلة من الزمن تحت غبار الكتب.

قمت في منتصف السبعينيات بترجمة المذكّرات ونشرها، لكنها سرعان ما صودرت من الرقابة في وقتها، ربما جرّاء وجهة نظر رقيب يحمل من الحس «الأمني» أكثر مما يحمل من الحس «الثقافي». لأجد أنا أيضاً، في وقتها، أن نشرها كما هي من دون تعليق قد يُضلل

القارئ غير المطّلع، فعكفتُ على كتابة الحواشي المفسّرة للنص، من دون المساس بالنص نفسه، لأنه أمانة تاريخية.

نُشر الكتاب بحواشيه في الطبعة الثانية، إلا أنه سرعان ما نفذتْ نسخُه. لذا بناءً على الكثير من المُطالبات ها هي الطبعة الثالثة من الكتاب – المذكّرات – التي تحمل روح كاتبها وعصره ونظرته إلى الأمور في ذلك الزمان. إلا أنه أيضاً وثيقة من جملة وثائق عن أحوال الكويت قبل أن تأتينا نعمة النفط... أم نقمتُه، أضعُها من جديد بين يدي القارئ الكريم ، لعل فيها من الفائدة للأجيال القادمة. مع اقتراحي أن يتوافر بعض أهل الهِمّة من الجيل الجديد المهتم بتاريخ هذه المنطقة بنبش هذا الكنز الهائل من المعلومات التي تركتها سنوات طويلة من العمل في الإرساليات الأمريكية على طول خط الخليج من شماله إلى جنوبه، مع النظر إليها بعين التحقق والتحقيق، فهي تمثّل مخزناً للاجتماع الطبي الذي يدرسه طلابُنا ، كما تمثّل مرجعاً لأحوال إهلنا الذين تغيّر معهم وعليهم المحيط، ولتحوّل الزمن القديم إلى جديد.

محمد الرميحي

بيان – الكويت – 2012

مقدمة الطبعة الثانية

لــي مــع مـذكـرات وكـتـابـات العـامـلـين فـي البـعـثـات التـبـشيـريـة المسيـحيـة فـي الخليج قصة تـروى، فعندما كنت طالباً فـي بـداية السبعينيات في بريطانيا أُحضّر لدرجة الدكتوراه كانت المصادر التاريخية عن الخليج وحول ظروف معيشته وحياة أهلة قليلة بل نـادرة، وكـان أحد المصـادر الرئيسـية هـو ملفـات المعتمدين والقنـاصل الذين كـانـوا يـمثلـون القـوة المهيمنة في الخليج في القرن التـاسـع عشر، وحتى النصف الأول من هذا القرن العشرين، وأقصد بها بريطانـيا العظمى، وكـان المصدر الثاني هــو ما كتبه الرحالة، وأيضاً المبشرون الذيـن بدأوا يتـوافدون إلـى المنطقة في نـهاية القـرن التـاسع عشر وبداية القـرن العشرين.

هذه هي المصـادر الغربية، ولم يكن هنـاك مصادر محلية يعتد بها غير النقل الشفاهي من فم الأجيال المحلية الذي تتناقله هذه الأجيال لم يبهت ويتحول إلى شي من الأسطورة المحلية، ولا توجد طريقة علمية للتأكد منه وبيانه.

ووقع في يدي وقتها من المصادر العديدة الغربية ما لفت نظري إلى هذا الزخم الهائل من الوصف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي قام به هؤلاء المبشرون، وكانوا قد ألقوا برحالهم من البصرة في شمالي الخليج إلى مسقط في عُمان جنوباً، وكانت الفكرة الرئيسة لهذا العمل هي تطويق مهد الإسلام (الجزيرة العربية). كانت الفكرة ساذجة ولكنها تمحورت حول إنشاء مبانٍ لهذه الإرسالية الأمريكية تقوم بالتطبيب والتعليم والدعوة للدين المسيحي (التبشير)، وكان قد نقل لنا المرحوم أمين الريحاني، الكاتب الأمريكي من أصل عربي والذي زار منطقة الجزيرة العربية في عشرينيات القرن العشرين، كشاهد عيان نشاط هذه الإرساليات ونصيحته لهم فقال (لو اكتفت هذه الإِرساليات بالتطبيب والتعليم لكان أفضل لها، لأن هؤلاء العرب (الخليجيين: لم يتركوا دينهم أبداً)، وكانت ملاحظة صادقة.

اهتمامي بموضوعٍ ما كتبه هؤلاء «المبشرون» دفعني إلى أن أوصي بعض زملائي الأكاديميين بالبحث في هذا الموضوع، وكان أن أخذ الزميل عبد المالك التميمي أستاذ التاريخ اليوم في جامعة الكويت النصيحة واشتغل في الموضوع وقدم لنا أول دراسة مستفيضة وعلمية عن نشاط هذه البعثات التبشيرية في منطقة الخليج، وأصدر كتاباً هو دراسته للدكتوراه بعنوان (التبشير في منطقة الخليج العربي – دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي)، ولقد كانت كتابات هؤلاء

المبشرين منشورة في كتب أو في المجلة التي كانت قد أصدرتها إدارة الإرسالية في أمريكا بالإنجليزية.

لذلك عندما وقعت يدي على مخطوط مذكرات الدكتور ستانلي ماليري في أحد أضابير مكتبة جامعة أوكسفور في بريطانيا، ويبدو أنه عرضها على ناشرين بالإنجليزية، فلم يجد من ينشرها فأودعها مع مجموعة من كتبه في تلك المكتبة، وكان يمكن أن يطويها النسيان هناك، لذلك قررت أن أنشرها بعد قراءتها، وهكذا تم وعلى عجل، شاركني الزميل باسم سرحان في العمل ونُشرت المذكرات بالعربية في وسط السبعينيات تحت نفس العنوان الذي ننشره اليوم.

وبعد أن ظهر العمل توجه عدد من الإخوة الباحثين في الكويت وفي الخليج إلى البحث والتقصي في أعمال المبشرين المكتوبة، وكان أن صدرت مجموعة من الكتابات أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، كتاب زبيدة علي أشكناني (من الكويت) المعنون (من نافذة الأمريكاني)، وكذلك كتاب خالد البسام (من البحرين) وعنوانه (القوافل) وهو مأخوذ من مجلدات (العربية المنسية) التي أعادت مؤسسة مجلة بانوراما طباعتها في البحرين.

الكتاب الذي أصدرناه بمذكرات ماليري سنة 1975 كانت تشوبه بعض الأخطاء، تجاوزنا عنها في طبعته الأولى وساعدنا في ذلك حماس الشباب أيضاً، ولكن الكتاب نفسه لم ير النور لأنه في

ذلك الوقت رئي عدم توزيعه، فقط تسربت منه بعض النسخ لأيدي المهتمين والمتابعين.

وعندما اقترح عليّ الزميل أحمد الديين صاحب «دار قرطاس للنشر» وهو المهتم بمثل هذه الأعمال أن أعيد نشر الكتاب كان لا بدّ من إعادة النظر في الترجمة من جديد وفي تنقيح وضبط المعلومات التاريخية دون التدخل في سرد المؤلف نفسه، وكان ضرورياً فوق ذلك أن أبين للقارىء وجهة نظري – بعد هذه التجربة مع الكتابات الغربية – ما أعتقد أنه جزء لا يتجزأ من فهم ما كتبوه ومرحلة الكتابة.

القصد من نشر كتاب كهذا هو التوثيق لما كان قد رآه غربي من وجهة نظر غربية وبمقياس غربي بحث لما كان يدور في مجتمعات الخليج في النصف الأول من القرن العشرين، قبل أن يظهر النفط وتتغير هذه المجتمعات في بعض مظاهرها من النقيض إلى النقيض، ولكن المؤلف أيضاً ليس معصوماً عن الهوى، لا هو ولا غيره من مؤلفي المرحلة والمبشرين الكتّاب الذين كتبوا حول منطقة الخليج، وهي كتابات كثيرة منشورة بالإنجليزية ولم يرّ معظمها النور بالعربية.

فقد كان ينتابهم الكثير من التعصب – وهم مبشرون لدين اعتقدوا أنه الصحيح للبشرية – هذا التعصب أغلق أعينهم عن النظر بموضوعية لما يحيط بهم من ظواهر. بجانب التعصب فإن كاتبنا أيضاً يظهر ضآلة الثقافة وفقر الاطلاع على ثقافة جديدة عليه، لذلك خلط في الكثير من ملاحظاته في هذا الكتاب بين العادات والتقاليد

الموروثة في المجتمع وبين تعاليم الإسلام الحنيف، هذا الخلط أوقعه في التعميم غير المتوقع من كاتب مثله. ولقد حرصت في هذه الطبعة على أن أثبت في الهوامش إشارات وجدت أنها لازمة للفت نظر القارىء إلى بعض الموضوعات التي تستحق لفت النظر لها.

وليس هذا الكتاب أو المذكرات قد سطرها أكاديمي يوازن ويراجع ويضبط الحوادث التاريخية كما يفرض ذلك المنهج العلمي الحديث، إنما هي ذكريات سطرها الكاتب - ويبدو أنه سطرها في آخر سني حياته - فجاءت كما هي عليه من تعميم وعفوية وعدم ضبط ولا تحرٍ للدقة، فهو ينتقل من نقطة إلى نقيضها انتقالاً غير مألوف دون أن يشعر بالحرج أو بضرورة التروي.

ويبقى في النهاية أن هذا الكتاب يُطرح من جديد لأنه يعطي القارىء العربي - خاصة في منطقة الخليج - نظرة عما كان واقعاً ومنظوراً إليه من نظرة غربية تبشيرية، فيه الجيد وفيه الرديء، فيه الموثق وغير الموثق. ومن الخطأ الجسيم أخذ كل ما جاء به الكاتب وكأنه مسلمة نهائية أو صرف النظر عنه كله، وكأنه صنع خيال، فالكتاب فيه الإيجابي وفيه السلبي. وعلى طلابنا في المستقبل والقراء في العموم تدقيق الكثير مما جاء في هذا الكتاب - المذكرات، وتنقية حوادثه إذا ما ظهرت مصادر جديدة ومتوازنة، فهو ليس كتاب تاريخ ويجب ألا يكون، إنما هو واحد من الروايات العديدة، إن تطابقت مع روايات أخرى سمي ذلك تحقيقاً

وثيقاً ودخل سجل التاريخ، وإن كانت معزولة عن روايات أخرى وشاذة عنها أسقطها التاريخ الذي نرجو أن يكتبه أبناؤنا وطلابنا في المستقبل بروح علمية واستقصائية وضبط ودقة علها أكثر مما توافر لدينا نحن جيل الرواد، ولكن المهم أننا لم نبخل في تقديم التصور، ولم نتردد في عرض ما هو موجود بشره وخيره، بصدقه وغموضه، وحتى من وجهة نظر غير متعاطفة، ذلك هو الطريق العلمي الذي يجب أن نسير فيه وهو الأجدر والأوفق في تنقية تاريخنا في هذه المنطقة من العالم العربي التي كانت تفتقر لأبسط أشكال التسجيل منذ عقود قليلة، فأثقلت بأشكال من التسجيل غثة وسمينة حتى ضاعت – أو كادت أن تضيع – الحقيقة.

وقبل أن أترك القارىء يتصفح هذا الكتاب لا بدّ من إعطائه صورة ولو سريعة عن جهود التبشير المسيحي في منطقة الخليج، الأمر الذي لم يقدم للقارىء العربي – حسب ظني- حتى الآن.

لقد كان مفتتح الدعوة التبشيرية الأمريكية في بداية القرن التاسع عشر، وكانت الحركة الإيمانية المسيحية الجديدة فقد أخذت شكلها المؤسسي في الدعوة البروتستنتية التي نشأت في أحضان تطور المؤسسة الاجتماعية والثقافية لشباب الولايات المتحدة في نهاية القرن الثامن عشر وكانت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ومفتتح القرن التاسع عشر قد شهدت في الولايات المتحدة معسكرات واجتماعات وحركات إحياء وتحولات عقائدية تتعلق

جميعاً بإحياء وتعزيز البروتستنتية على نحوٍ لم يشهده العالم من قبل، وكان ذلك كله يتم في إطار تفاؤل الرواد بصورة غير عادية بالحماس لهذه الدعوى وكان الوعاظ البروتستنتيون من كل اجتهاد يتصورون أن كلاً منهم يحمل القيمة الحقيقية والنهائية (للدين القويم)، ومن ثم احتدمت بينهم المنافسة في منطقة نيوإنذلند، من أجل هداية البشر، والبشر هنا جميع الأديان بل وحتى الطوائف المسيحية غير البروتستنتية.

وقد نشأت نِحل عديدة ضمن البروتستنتية منها الميثودية[1]، المعمدانية[2] الوحدانية، الكنسية، المجمعية[3]، المشيخية[4] والكنيسة الإصلاحية الهولندية.

ويرى المؤرخون اليوم أن الثورة الأمريكية هي في الحقيقة ثلاث ثورات، وإن اندلعت الحرب من جراء واحدة منها، أما الثورة الثانية فكانت تتمثل في الفصل بين الكنيسة والدولة، أما الثورة الثالثة فهي جعل الدين أمراً من أمور العقل قبل أن يكون شأناً من شؤون الوجدان.

ونتيجة لتواؤم فكرة الحرية بوضعها الحالي للإنسان التي جاءت بها الثورة الأمريكية والاعتقاد بأن البروتستنتية هي «دين العقل» فلا بدّ

---

(1) الميثودية: أتباع الكنيسة المنهجية الإنجليزية.

(2) المعمدانية: دعوة إلى عدم تعميد الفرد إلا في سن النضج

(3) المجمعية: أتباع الدعوة إلى استقلالية الأبرشيات.

(4) المشيخية: ويقوم أمرها على نظام من شيوخ الكهنة.

لهذه الدعوة أن تنشر على أكبر قدر من البشر «بنشر الحب المسيحي» تجسيداً للصوت الديني لأمريكا الشابة.

وانطلقت دعوة هداية الآخرين تبحث لها عن آفاق خارج الأراضي الأمريكية يدعم من ذلك الحماس الديني الذي لم ينجح - رغم الجهود الكثيفة - في تنصير الهنود الحمر في أمريكا، وافترض الدعاة أن المشكلات خارج الحدود سوف تكون أسهل في الدعوة وتكون المنافسة بين الطوائف (البروتستنتية) أقل في بلوغ تحقيق المكانة والمجد لهؤلاء الدعاة. لقد كان السفر إلى الخارج للدعوة سبيلاً محققاً لتحسين مكانة رجل الدين الاجتماعية التي كانت بدأت تتضاءل نتيجة للموجات الكثيفة من المهاجرين إلى أمريكا من الأوروبيين الذين بدأوا يغيرون وجه الحياة في الريف الأمريكي، وتحولت القرى لتصبح مدناً صاخبة بالحياة، وتحول القساوسة المحليون إلى مجرد صوت ضمن الأصوات الكثيرة التي كانت تتنافس على اهتمام أمريكا الجديدة بتنوعها الثقافي المتزايد والمتعدد ونظامها الاقتصادي المتسع.

كان اهتمام المبشرين ببلاد مثل جزر ساندويتش (هاواي) ثم الصين والساحل الغربي لأفريقيا، ولكن نداء الأراضي المقدسة في المشرق كان يرتفع فوق كل النداءات، لم يكن ذلك بوصفها مسقط رأس السيد المسيح، لقد رأى المبشرون في حركتهم تجاه الأراضي المقدسة أنها لا تقل عن حملة صليبية جديدة، حملة من شأنها أن

تخلص في نهاية المطاف أرض الأَنجيل من السيطرة الإِسلامية!!
لذلك فإِن الدعوة التبشيرية البروتستنتية اهتمت بسوريا الكبرى (لبنان وفلسطين) منذ منتصف القرن الماضي، كما اهتمت بشمالي إيران، وكان غرضها ليس تنصير المسلمين ولكن أيضاً أن تتحول الجماعات المسيحية غير البروتستنتية كالروم الكاثوليك والمارونيين إلى البروتستنتية.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت البعثات التبشيرية من القساوسة والدعاة الدينيين، ولكن ظروف المعيشة في المناطق المختلفة وهي ظروف صعبة أودت بحياة العديد منهم نتيجة أمراض محلية قاسية، لذلك بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح وجود طبيب للبعثة أو طبيب من القساوسة أمراً ضرورياً، ومن هنا درب بعض رجال الدين أولئك على شيء من التعليم الطبي.

ومن اللافت للنظر أن التدافع نحو التبشير للطوائف البروتستنتية الأمريكية قد ألجأ هذه الطوائف إلى تقسيم العمل والمناطق فيما بينها، فالأبرشيون أصبحوا مسؤولين عن تركيا. والمشيخيون مسؤولين عن مصر وسوريا وإيران فيما أصبحت الكنيسة الإِصلاحية الهولندية مسؤولة عن الخليج العربي.

والأخيرة بدأت أعمالها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في خطة سمتها أدبياتها «تطويق مهد الإِسلام»

وبدأت مراكزها تنتشر من البصرة في العراق شمالاً مروراً بالكويت والبحرين والإمارات (اليوم) وعُمان.

قصة التبشير في المشرق قصة طويلة وقد رويت في أكثر من كتاب وليس مقامها هنا الآن[1]، وقد أحرزت في المشرق قدراً من النجاح كما باءت قصص من الفشل، لعل أهم النجاحات هو جلب مطبعة المبشرين الأمريكيين إلى بيروت العام 1834 مستخدمة بنطاً طباعياً طوره «إيلي سميث» فأصبح هذا البنط يُعرف في سوريا الكبرى (بالعربي الأمريكي) كذلك إنشاء الكلية البروتستنتية السورية في بيروت العام 1867 والتي سميت بعد ذلك بالجامعة الأمريكية في بيروت والتي يعزو لها بعض المؤرخين احتضانها لدعوة القومية العربية في نهايات القرن الماضي وبداية هذا القرن. أما الفشل فهو عجز حركة التبشير عن استقطاب أصحاب الأديان المحلية إلى طريقتهم سواء كانوا نصارى شرقيين أو مسلمين، هذا الفشل تكرر بوضوح في منطقة الخليج والتي كتبوا عنها في النصف الأول من هذا القرن كتابات عديدة كثير منها – كما قلت – لم يرَ نور العربية بعد، بل أصدروا مجلة سموها (العربية المنسية) كانوا ينشرون فيها مقالاتهم وانطباعاتهم عن الأوضاع العامة في منطقة الخليج، وإن كانت هذه العجالة تعني شيئاً فإنها تعني لفت النظر بشدة إلى ترجمة واستقصاء

(1) آخر كتاب في هذا الموضوع صدر بعنوان: The Arabists - by Robert D. Kaplan Brandt & Brandt - U.S.A 1995.

ما كتب عنا من قبل هؤلاء المبشرين الحالمين، والذين لا شك أنهم أفنوا حياتهم في سبيل رسالة نجحت جزئياً في التطبيب وفشلت كلياً في التبشير.

وأملي بعد ذلك كله أن يكون هذا الكتاب بعد ضبطه وتنقيحه في طبعته الثانية هذه زاداً للمدققين والباحثين وللقراء في المستقبل.

وبه نستعين.

م.غ.ر.

مقدمة الطبعة الأولى

مذكرات الدكتور س. ستانلي ماليري التي نضعها بين يدي القارىء العربي في هذا الكتيب - هي وصف معايش لتطور الكويت، يرويه شاهد عيان ساهم شخصياً في أو راقب عن كثب مجريات الأموز سواء في الكويت التي كانت مقر إِقامته الدائمة، أو في البحرين التي قضى فيها بعض الوقت كطبيب.

لقد كانت هذه المذكرات الشخصية للدكتور ماليري مطبوعة على الآلة الكاتبة بالإنجليزية ومودعة في مكتبة مركز الشرق الأوسط في جامعة أكسفورد في بريطانيا. والظاهر أن أمل كاتب المذكرات كان نشرها بتلك اللغة.

إلا أنه من الواضح أن نشر هذه المذكرات في الغرب لم يكن ذا مردود مالي مجز لكثير من دور النشر التي عرضت عليها المخطوطة، فنامت هناك لمدة طويلة.

وإِذا كانت أهميتها للقارىء الغربي أمراً مشكوكاً فيه فهي بعكس ذلك بالنسبة لقارئنا العربي، وبخاصة العربي في الخليج، فإِن هذه المخطوطة - التي ترجمناها هنا - بالغة الأهمية لعدة اعتبارات

... الاعتبار الأهم، أنها تضم بين دفتيها معلومات جديدة يعرفها القارىء العربي لأول مرة، وكان قد عايشها كاتب المذكرات. فهو هنا يصف مجموعة من الحوادث التاريخية التي خبرها عن قرب، وسجلها بآلامها وزخمها.

ورغم أن هذه المذكرات تبدو للقارىء في أول الأمر وكأنها ذكريات كتبت كيفما اتفق من شخص «يهوى» الكتابة ويمتهن «الطب» والتبشير، إلا أن الملاحظ المدقق يمكن أن يتعرف على رموز القيادات البشرية التي تصدت للعمل السياسي في ذلك الوقت في الكويت وما جاورها، فهو يصف رجالاً قابلهم سواء من الكويتيين أو من رجال حكموا بعضاً من أقطار جزيرة العرب، وسجل لنا بكل أمانة ردود أفعالهم كما شاهدها على كثير من الموضوعات. فقد وصف مثلاً الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت في مطلع القرن العشرين ومؤسس الكويت الحديثة فقال كما كان يراقب «وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية وكانت كلمته قانوناً ولم يكن يسمح لأي من رعاياه بالاحتفاظ بعربة أو حتى بجواد للركوب، أما المسنون المقعدون فكانوا يركبون حميراً متواضعة»، كذلك فقد وصف «يوم الأحد الدامي الذي عاشته الكويت في العاشر من أكتوبر 1920 والذي كان يوم معركة الجهراء الشهيرة، ووصف الاستعداد للحرب وتلقي أنباء القتال، وحال المدينة الصغيرة آنذاك وهي تتوقع بين فينة وأخرى دخول المحاربين المهزومين وخلفهم جموع المنتصرين

ينهبون المدينة الصغيرة، وقبل ذلك وصف عملية بناء سور الكويت الذي كان من المفروض أن يحمي المدينة من الغزو، وقارن بين هذا السور وكلمة مبارك الصباح عندما قال: «إن الكويت لا تحتاج إلى سور... أنا سورها..».

ويذهب الدكتور ماليري في سرد ذكرياته عن الفترة التي عاشها في الخليج (البحرين والكويت بين عامي 1907 و1947 الفترة التي كتبت عنها المذكرات) فيأتي على حوادث وقصص شارك فيها أو رآها بعينه ويصف ذلك المجتمع البسيط الذي غدا في يومنا هذا مجتمعاً معقداً تحتاجه عوامل التغيير - فكان من الضروري معرفة ما كان عليه السابقون لإجراء مقارنة يستفيد منها الباحثون في المستقبل.

وهنا من الضروري أن نبين أن كاتب المذكرات قد انساق في بعض من ملاحظاته حول تعميمات كان الأجدر به ألا ينساق وراءها وهي تارة تعميمات يمكن اعتبارها سلبية وتارة تعميمات يمكن اعتبارها إيجابية - ولكن في الحالتين - يجب التحفظ عليها، وهي لا تغيب عن بصيرة القارىء الحصيف.

ولقد حاولنا في هذه الترجمة أن نورد ما قصد إليه الكاتب من معنى بالدقة التي تسمح بها الترجمة دون المساس بسياق وسلاسة السرد - ما أمكن - كما أننا جربنا وضع بعض الملاحظات في الحواشي والتي اعتقدنا أن الكاتب قد جانب الصواب فيها إما تاريخياً أو من حيث دقة المعلومات.

لقد كان واضحاً من خلال سرد الكاتب لمذكراته أن وجوده ووجود الكثير من أمثاله من المبشرين – في خليجنا العربي – في تلك الفترة الصعبة والتي لم يكن يتوافر فيها رغد العيش الذي تركه وراءه في الغرب كان في حقيقته ذا دافع ديني – وقد ذكره دون تحفظ في أكثر من موقع من خلال السرد للأحداث التي شهدها – ونحن بدورنا – عندما نتحفظ على هذا الدافع نعترف أن الإرسالية التبشيرية التي غزت منطقة الخليج منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، واستمرت خدماتها حتى حوالي منتصف هذا القرن في بعض الأقطار الخليجية، وما زال البعض منها قائماً – كما في البحرين – قد أدت لمجتمعات الخليج خدمات جليلة وبخاصة في مجال الصحة – وبشكل محدود في التعليم، ولكنها لم تستطع أن تنفذ إلى عقيدة السكان المسلمة والصلبة.

كما أنها ولأسباب واضحة قد فشلت في المهمة الرئيسية غير المعلنة وهي التبشير. فقد ذكر أمين الريحاني هذا الموضوع في كتابه ملوك العرب، عندما لاحظ خلال زيارته لمنطقة الخليج في عشرينيات هذا القرن – وهو المسيحي – صعوبة انتشار المسيحية، واقترح أن تقتصر خدمات هذه الإرساليات على التعليم والصحة فقال:

«لست كما يعلم القارىء ممن يعجبون بالمرسلين ويستحسنون التبشير بالأديان ولكن في البحرين معهداً أمريكياً ديني الأصل طبياً وتهذيبي العمل، وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس، ومدرسة

– كانت يوم زرت الجزيرة مقفلة – ومستشفى وصيدلية يديرها طبيب فاضل وبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويثبتن عملاً لا قولاً روح التهذيب والارتقاء... ولكن هذه الإرسالية في البحرين والكويت والبصرة تستطيع أن تضاعف خيرها وتعممه لو أقلعت عن التبشير وحصرت ما لديها من أسباب البر في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية، ذلك لأن المسلمين – وخصوصاً العرب منهم – راضون رضاً عجيباً بدينهم ولا يرغبون في سواه بديلاً[1].

وقد كان استخلاص الريحاني في أوائل العشرينيات حقيقة لا تقبل الجدل فقد كان التبشير ذاته عملاً صعباً لم يستطع أن ينفذ إلى جزيرة العرب. ولكن هؤلاء الأطباء الذين عملوا في هذه الإرساليات لا شك قد أدوا لنا خدمات جُلّى ليس في عملهم الطبي فقط وإنما في عملهم الأدبي أيضاً.

فواحد مثل الدكتور صامويل زويمر Zwemer S.M. الذي كان من الرواد الأوائل من المبشرين في هذه المنطقة قد ترك لنا عملاً رائعاً في مطلع القرن حول مجتمعات جزيرة العرب في عمله ذائع الصيت Arabia: The Cradle of Islam الذي صدر في نيويورك عام 1900.

ثم بعد ذلك ترك مؤلفاً آخر نشر في سنة 1915 بعد وفاة مؤلفه وعنوانه «الطفولة في البلاد الإسلامية» Childhood in the

(1) أمين الريحاني: ملوك العرب المؤسسة العربية للطباعة والنشر) مجلد 2 – 1967 ص 212.

Moslem، World ويعد من نفائس الكتب حول الطفولة كتبه مبشر في أوائل القرن.

كما أن طبيباً آخر هو الدكتور بول هاريسون Paul W. Harrison الذي ترك لنا تحفتين رائعتين الأولى في كتاب «العرب في دارهم» The Arab at Home والذي نشر في نيويورك عام 1924، ثم كتاب «طبيب في جزيرة العرب» Doctor in Arabia نشر في نيويورك عام 1940.

وفي الكتابين عدا مجموعة من المقالات القيمة كتب الدكتور هاريسون عن مجتمعات الخليج وشرقي الجزيرة العربية باستفاضة وشرح الظروف الاجتماعية وطرائق معيشة هذه المجتمعات، وسبل حصولها على الرزق. وأصبحت هذه المصادر من أهم المصادر المكتوبة حول مجتمعات الخليج في النصف الأول من القرن العشرين. لقد أسست الإرساليات العربية The Arabian Mission التي هي تابعة للكنيسة البروتستانتية الهولندية في أمريكا مجموعة من المراكز التبشيرية في مقصدها والتعليمية والطبية في ممارستها – أسست مراكز لها في البصرة والبحرين والكويت ومسقط وهي تهدف إلى محاصرة جزيرة العرب بهذه المراكز وتطمح بعد ذلك إلى غزو الإسلام في عقر داره – ولكنها – كما نعرف الآن – فشلت في ذلك... إلا أن من بعثتهم هذه الإرسالية كما ذكرنا قد ألفوا الكتب أو نشروا أبحاثاً مستفيضة في المجلة التي أسستها «الإرسالية العربية»

والتي كان أسمها في البداية «الرسالة العربية – رسائل ربع سنوية من الميدان» ثم غيرت إلى اسم جديد هو «العربية المنسية» Neglected Arabia ثم غير الاسم مرة أخرى إلى «العربية تنادي» Arabia Calling ثم غيرت أخيراً إلى «مجلة العالم الإسلامي» Mosleim World وقد نشرت في هذه المجلة على اختلاف أسمائها كثير من المقالات والدراسات حول جزيرة العرب والخليج. وعلى الرغم من استمرار هذه المجلة الأخيرة إلا أن المحاولة التبشيرية قد أعلن عن سقوطها في كتاب نشر عام 1938 لكاتب مبشر هو ستورم هاردلز Storm W. Hardls «بلاد العرب إلى أين؟» Whither Arabia.

وبقي في النهاية الاتجاه إلى رصد هذه المحاولات التي تمت في ثلاثة أرباع قرن تقريباً وصرف عليها الكثير من المال، وأنشئت من أجلها المستشفيات والمدارس – إن رصد هذه التجربة – تجربة التبشير في الجزيرة والخليج – ومردوداتها الاجتماعية والسياسية أمر متروك لباحثينا الشباب – وما هذه المحاولة إلا لبنة صغيرة في بناء كبير يحتاج البدء فيه إلى جهود كثيرة.

المترجم

أ.د. محمد الرميحي

فترة الإرسالية في البحرين

في يناير (كانون الثاني) عام 1907 وطئت أقدامنا أرض الجزيرة العربية لأول مرة. ولا تزال صورة دخولنا ميناء مسقط الجميل عند بزوغ الشمس واضحة في ذهني. وقد طالعتنا الحصون البرتغالية القديمة، التي بنيت في القرن السادس عشر، من فوق المرتفعات الصخرية لهذا الحوض البحري، وحدقت بنا الجبال الجرداء والسوداء. وكانت طيور الحدأة والنورس تطير فوق رؤوسنا وهي تزعق ربما مُرحبة وربما محتجة. وحالما رست السفينة في الميناء أطلقت طلقة مدفع واحدة لإعلام أهالي مسقط بأن البريد قد وصل، ورد أحد الحصون التحية بطلقة مدفع مماثلة.

وكانت الجوانب الصخرية للميناء مغطاة بأسماء السفن التي كانت تزور مسقط لسنين عديدة. ومسقط فريدة في هذا الأمر، وتشكل نقطة استراتيجية في تاريخ إرساليات التبشير. فقد زارها هنري مارتن عام 1811. كما أن المطران فالبي فرنش، عضو الجمعية الإنجليزية للإرساليات الكنسية مات في هذا المكان عام 1891، بينما يرقد جورج أي. ستون، عضو الإرسالية الأمريكية العربية، في

نفس المقبرة في كهف صخري قريب من الساحل، وقد عمل هنا بيتر زويمر، ولكنه رجع إلى بلاده عام 1898 نتيجة مرضه، حيث توفي في أحد مستشفيات نيويورك. وقد كان مقدراً للدكتور شارون ج. تومس الانضمام إلى مجموعة المقبرة الصغيرة، ولكن تلك الحادثة المحزنة التي وقعت بعد ذلك بسنوات كانت لا تزال في عالم المجهول في مطلع عام 1907.

وقد كان آل كانتين أول المبشرين الذين رحبوا بالسيدة زوجتي وبي شخصياً. وتجدر الإشارة إلى أن السيد كانتين كان أحد رائدي الإرسالية الأمريكية العربية وكان الرائد الآخر هو الدكتور صموئيل م. زويمر. فقد كان جيمس كانتين أول عضو في الإرسالية يبحر من أمريكا إلى الجزيرة العربية وذلك عام 1889.

وقد أمضينا أسبوعين مريحين في مسقط. وتشجعنا كثيراً لحديث السيد كانتين عن جولاته في الجبال المحيطة بنا حول مسقط، وعن رحلاته إلى الوديان الخصبة خارجها، وعن علاقاته بشعب عُمان المضياف. وقد كانت السيدة كانتين مضيفة لبقة، وقامت بتقديم زوجتي «بسي» إلى النساء العربيات. وقد تلقينا دروس في اللغة العربية في مسقط، حيث اختار أستاذنا، وهو إنسان ينقصه الخيال، الفاتحة والصلاة لتكون أول دروسنا بالعربية على الرغم من صعوبة كلماتها.

وقد قضيت بعد ذلك في وقتٍ لاحق فترة شهرين من عام 1942 في مسقط ومطرح مع آل ديكستارز ومع ولز تومس بن شارون تومس،

عرفت خلالها حقيقة الجهد الكبير الذي بذله الرجلان، فقد زارا من الأماكن النائية ما لا يتوقع المرء أن يزوراها، وتركا في كل مكان زاراه أثراً طيباً وذكرى حميدة.

ووصلنا في أواخر شهر يناير (كانون الثاني) إلى البحرين، وهي مجموعة جزر اللؤلؤ التي قام الدكتور صموئيل م.زويمر بأول عمل رائد فيها. وقد كانت البحرين سنة 1907 مكاناً بائساً إلى أقصى الحدود، رغم أنها لم تكن بنفس البؤس الذي عرفه زويمر عندما عاش هناك في أوائل التسعينيات من القرن الماضي. وقد سمعت أن زويمر أحضر أول كرسي وأول شمسية إلى البحرين. وربما لا يكون هذا الكلام صحيحاً، إلا أن له مدلولاته، لأن مما لا شك فيه أن زويمر حمل معه عصراً جديداً إلى هذه الجزر. وقد تبع خطواته، سواء من المسؤولين الحكوميين أو التجار أو المبشرين، على أساس ما بدأ به هو من مظاهر «التحديث».

كان ميناء البحرين عام 1907 خالياً من أية تجهيزات. فلم يكن هناك أي رصيف أو حاجز مائي، وكان الانتقال من السفينة إلى الشاطىء يتم على ثلاث مراحل. المرحلة الأولى كانت بقارب شراعي كبير يبحر حتى يتوقف بسبب ضحالة المياه، والمرحلة الثانية بقارب أصغر يبحر حتى يتوقف هو الآخر، والمرحلة الثالثة على ظهر حمار ينقل الركاب إلى اليابسة.

وتعاني البحرين بشكل كبير من الطقس الرطب. فالرطوبة

تنضح من الأرض، والطرق لا تجف أبداً في مناطق عديدة في أرجاء الجزيرة. ولم تكن هناك بلدية، وبالتالي لم يكن أحد مسؤولاً عن تنظيف الشوارع. فالقمامة متناثرة في كل مكان، والذباب سيد الجو، والفئران ترتع في الشوارع. أما الكلاب العوراء والعرجاء والجائعة، والمغطاة بالبثور والقروح فكانت تقتتل فيما بينها على أي طعام نتن تجده. وكانت الحمير البيضاء الكبيرة أو الحمير الداكنة الصغيرة تعبر الشوارع ببطء وهي تحمل أثقالاً على ظهورها. ومع أن بعض هذه الحمير كان صحيح الجسم قوياً، إلا أن معظمها كان ضعيفاً عليلاً.

وكان خلف المدينة العديد من البرك الضحلة الراكدة الخضراء والمليئة بالبعوض. ولم يكن وضع ساتر على النوافذ معروفاً حتى في بيوت الإرسالية الأمريكية. وكانت الملاريا والتيفوئيد والديزنتاريا لا تواجه أية مقاومة. أما الجدري فكان مستوطناً، والسل منتشراً، والبرص أمراً عادياً. وكانت الطفيليات كالدود المعوي والبلهارسيا تزيد من مصاعب الحياة.

وقد عاش أول المبشرين الذين أرسلناهم في بيوت استأجروها من العرب في ظل أوضاع عير مريحة إطلاقاً، إلى أن تمكن الدكتور زويمر من إقناع صديق ببناء بيت حسب مواصفات حددها له بنفسه. وكان هذا البيت، الذي يتألف في الواقع من ثلاثة بيوت تحتل ثلاثة جوانب من باحة مربعة، يعتبر أفضل من أي منزل سابق، وقد عشت وزوجتي فيه مدة عام تقريباً.

كان سجل الإرسالية الأمريكية العربية الصحي آنذاك سيئاً، فقد أصيبت زوجتي بالملاريا القاتلة في مسقط، حتى كادت تشرف على الموت في يناير (كانون الثاني) 1907 [1] ومن الغريب أنها لم تصب بالملاريا مرة ثانية مع أن البحرين كانت وما زالت تعج بالحمى على الرغم من الحملات الوقائية المكثفة ضد هذا المرض، كما أن تواجد موظفي المستشفى جميعاً في وقتٍ واحد كان أمراً نادراً، إذ غالباً ما يتغيب موظف أو أكثر بسبب إصابته بالملاريا. وكان هناك عدو عنيد آخر في البحرين وهو الحمى التيفوئيدية، وقد أقعدتني الفراش في آخر سبتمبر (أيلول) عام 1907. وكانت إصابتي خطرة جداً، وأخبرني الدكتور شارون تومس الذي كان يعالجني فيما بعد أنه قد يئس من وضعي أكثر من مرة. ولكن العناية الفائقة التي لقيتها من كل من في المستشفى، وخاصة من زوجتي ومن شارون تومس، بالإضافة إلى رحمة الله ساعدتني على التماثل للشفاء، وما زلت أذكر الجهد الذي بذله شارون لساعات وهو يعمل على آلة فرنسية هزيلة لكي يصنع لي قطعة ثلج صغيرة.

وكيف أنسى الذباب الذي يحط بأسراب كثيفة على المربى حالماً نفتح غطاء العلبة مما كان يضطرنا إلى التهوية باللقمة من

(1) يمكننا أن نستنتج من هذه الفقرة التي سجلها الكاتب عن إصابة زوجته بالملاريا القاتلة حتى كادت تشرف على الموت – على حدّ قوله–: ميل الكاتب للمبالغة في الوصف أو تضخيم الحدث، فلو كان صحيحاً مشارفة زوجته على الموت في شهر يناير للعام 1907 في مسقط لما استطاع السفر بصحبتها من مسقط إلى البحرين في أواخر يناير، علماً بأنهما وصلا مسقط في الشهر نفسه. ولا ندري إن كان في أوله أو وسطه. فمتى تماثلت للشفاء من الموت المحقق حتى تمكنت من السفر مع زوجها في أواخر يناير؟!

الصحن إلى الفم لكي نمنع دخول الذباب إلى أفواهنا. وكانت توجد تحت نافذة غرفة طعامنا كومة من الأقذار يلقي بها الجيران بسخاء، تشاركهم في ذلك مجموعة من البرص. وكانت هذه الأقذار تجلب لنا الأمراض.

ودفع مرضي الشديد مجلس الأمناء في نيويورك للتحرك. فقد شعروا بأنه لا بدّ من اتخاذ إجراء لمواجهة الأحوال غير الصحية في البحرين. فقد كانت نسبة الوفيات ونسبة العلل الصحية عالية جداً. وكتب الدكتور كوب إلى الإرسالية في البحرين يطلب تشكيل لجنة لدراسة الوضع وإرسال تقرير عنه للمجلس. وقد عينت الإرسالية في اجتماعها السنوي في يناير 1908 كل أطبائها أعضاء في اللجنة وعينتني رئيساً لها.

وقد رفعت اللجنة تقريرها للاجتماع السنوي وأصدرت عدة توصيات، أهمها وضع ساتر على نوافذ البيوت. ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم لم يصب أي من أعضاء إرسالياتنا بحمى التيفوئيد في البحرين، رغم أن حالتي حمى صعبتين حصلتا بعد ذلك ويمكن اعتبارهما حالتي تيفوئيد أو بارا تيفوئيد خفيفتين.

ولم تفقد الإرسالية أي عضو من أعضائها بسبب الأمراض المعدية الحادة منذ إحاطة النوافذ بساتر.. والاستثناء الوحيد كان موت (كرستين افرسون بينت) بالتيفوس عام 1916 أثناء الحرب العالمية الأولى وكان لموتها أسباب سأتحدث عنها فيما بعد.

وقد أوفدتني الإرسالية في مارس وأبريل 1908 إلى الشارقة ودبي في جولة طبية. وكانت المدينتان قريبتين من بعضهما وتقعان على ساحل كان يعرف بساحل القراصنة، ولكنه سمي ساحل الهدنة منذ وقت طويل[1]. وقد رافقني موظفان آخران هما يوسف أمين، المستخدم الذي يوزع الكتب الدينية بالمجان، وهو عراقي تحول إلى اعتناق المسيحية وكان جندياً سابقاً في الجيش التركي، ويوليوس عبد المسيح، وهو صيدلي من المستشفى، (ولا بدّ أن بعض أصدقائي يتذكرون يوليوس الذي افتتح صيدلية في البصرة فيما بعد، وتوفي عام 1945). وقد خبرت في دبي لأول مرة حقيقة معنى العداء الإسلامي. ولكننا استطعنا القيام بنشاط طبي كثيف هناك، بينما استطاع يوسف أمين بصبره اللامتناهي وحنكته أن يلطف من حدة الجو العام المعادي.

وعرفت هنا معنى العبودية، في هذا المكان الذي يخلو من التأثير المسيحي الفعّال، وما زلت أذكر ولداً فقيراً عوقب بأن ظل يُكوى بالنار في أعلى كتفه حتى وصلت النيران إلى العظم، وأصيب بالتهاب شديد (غرغرينا) وكان قطع الذراع العلاج الوحيد الممكن[2].

---

(1) هذه التسميات أطلقت من قبل الكُتاب الغربيين على ما يعرف اليوم بدولة الإمارات العربية المتحدة.

(2) من الصعب على غير المسلم أن يفرق بين الممارسات اللامسؤولة من قبل بعض المسلمين، وبين تعاليم الدين الإسلامي. وإلا لماذا ربط الكاتب بين الإسلام وأسلوب عقاب الولد الفقير؟. والملاحظ أنه في الفقرة الثانية لهذا الخلط في التفسير والربط، يصف الكاتب صديقه العربي المتحمس للدعوة للإسلام بالسماحة والصدق!!

وقد حاول عربي في الشارقة أن يهديني إلى الإسلام وبذل جهوداً كبيرة في سبيل ذلك. وكان الرجل سمحاً صادقاً إلى أبعد الحدود. وما زلت أحتفظ بكتاب صلاة عربي جميل اهداني إياه، وكتب اسمه واسمي على الصفحة الأولى منه. كان ذلك منذ أربعين عاماً، وغالباً ما أتساءل إذا كان صديقي المتحمس ما زال على قيد الحياة.

وكنت في صيف عام 1908 مسؤولاً عن إدارة مستشفى ماسون التذكاري في البحرين لثلاثة شهور أثناء غياب شارون تومس في إجازة في الهند. ثم عينت عام 1909 مسؤولاً دائماً بعد إرسال آل تومس إلى مسقط لإنشاء مركز طبي هناك. وكان الدكتور تومس يتولى مسؤولية هذا المستشفى منذ إنشائه عام 1902، وهو أول مستشفى بنته الإرسالية العربية الأمريكية. وكنت دائماً أفكر بالمعاناة الفائقة التي عاشها الدكتور شارون تومس عندما اضطر إلى ترك العمل الطبي الذي بدأه من الصفر في البحرين، وذهب إلى مسقط ليبدأ من الصفر من جديد. وقد تقبل مهمته الجديدة بفروسية وبنى مركزاً طبياً في مطرح آلت مسؤوليته إلى ابنه ولز.

وقد تعلمت في هذه الأثناء كيف أتحمل المسؤولية في البحرين، واستفدت كثيراً من تجاربي وخبرتي هناك. وشاركني في العمل أثناء إقامتي في البحرين ولفترات متفاوتة الأطباء زويمر، وكانتين، وبارني والقس جيمس مورديك.

وكان الدكتور زويمر يتناول وجباته عندنا أثناء غياب عائلته لبضعة أسابيع. وكان أحد الأمور البارزة في علاقاته أن العرب يقصدونه. فهو لم يكن مضطراً للجري وراءهم. ونادراً ما كانت مكتبته، المليئة بالكتب، تخلو من زائر أو زائرين. وكان زويمر يعطي نفسه كلية لزواره. والأمر الذي يزيد من غرابة شعبيته في أوساط الناس كونه مبشراً صلباً لم يخفف من حدة رسالته لكي يجعلها أكثر قبولاً لدى سامعيه.

وكنت أعتقد أن حماسه يتخطى الحدود المعقولة وأنه ربما أضر بقضيتنا أكثر مما أفاد. ولكن زويمر اكتسب احترام الجميع ومحبة البعض في البحرين. وهو المبشر الوحيد بيننا الذي يستحق اسماً عربياً عن جدارة. وما زال الكبار في السن حتى يومنا هذا يتكلمون عن ضيف الله أو «التائه في خدمة الله».

وأنا أذكر مناسبة ذهبت فيها مع الدكتور زويمر واثنين أو ثلاثة من زملائنا إلى سوق الخميس[1] على بعد عدة أميال من المنامة، عاصمة البحرين. وقد توقفنا عند مقصف شاي إِيراني وقدم لنا الشاي[2]. وعندما شربنا أعدنا الفناجين إلى صاحب المقصف الذي كسرها فوراً وألقى بقطعها على الأرض، لأن المسيحيين شربوا منها ودنسوها. وتصدى زويمر للرجل قائلاً: «إلى متى ستستمرون في هذا التصرف»؟

(1) قرية تبعد عدة أميال جنوب المنامة عاصمة البحرين، مشهورة بمسجدها ذي المئذنتين.

(2) واضح أن الكاتب وقع في الخطأ الذي يقع فيه كثير من الكتاب الغربيين بأن خلط بين الشيعة والإيرانيين. لأن سوق الخميس يقع في قرية الخميس المعروفة في البحرين وكل سكانها بحارنة ينتمون إلى المذهب الشيعي.

وأخذ حشد من الناس يتجمع حولنا في الوقت نفسه. وسأله: «أين صنعت هذه الساعة التي في جيبك؟ وتلك الشمسية؟ وهذا الثقاب على الطاولة، والحطة على رأسك؟ والثوب الذي صنعت منه عباءتك؟ لولا المسيحيون لكنت عارياً، ولما امتلكت أياً من منتجات الحضارة».

كان تهجم زويمر حذقاً، وفهم الناس معنى كلامه. فقالوا: «إن ما يقوله هذا الرجل صحيح». وقام زويمر بإدخال الساعة العامة إلى البحرين. وكان ذلك بعد أن بنى جيمس مورديك كنيسة البحرين عام 1905 ولم ينقصها سوى الساعة. وقام زويمر خلال بضعة أيام بجمع ثمن الساعة من الأصدقاء والتجار المحليين[1]. وقد صحبته في بعض زياراته إلى المخازن والمكاتب وفوجئت بالتبرعات السخية التي قدمت لنا. وتم طلب الساعة من مصنع ألماني، ودفعنا ثمنها (40) جنيهاً استرلينياً، وما زالت في حالة جيدة بعد تسعة وثلاثين عاماً في ظل مناخ من أسوأ مناخات العالم. وقد أحدثت الساعة هرجاً ومرجاً كبيرين في البداية، وغالباً ما كنا نشاهد حشداً من الناس يقفون أمام الساعة ليسمعوها تدق كل نصف ساعة.

وقد كانت هذه الساعة بمثابة معلم للجمهور، لأنها كانت تعمل طبقاً للتوقيت الأوروبي الذي لم يكن عامة الناس يعرفون عنه شيئاً. فقد كانوا وما زالوا[2] – إلى حدّ كبير – يستعملون التوقيت العربي.

---

(1) تبرع التجار المحليين لشراء الساعة دليل على انفتاح من المواطنين ينكره المؤلف في أكثر من موقع.

(2) يشير الكاتب هنا في استعماله تعبير «ما زالوا» ربما إلى سنة كتابة المذكرات في أواخر الأربعينيات.

فاليوم الجديد يبدأ في الجزيرة العربية عند غروب الشمس، حيث يعمد الجميع إلى وضع ساعاتهم على الثانية عشرة، وهذا أمر بسيط بالنسبة لأناس يعيشون في بلدٍ خال من الغيوم حيث يمكنهم مشاهدة الشمس وهي تغيب خلف الأفق. ولمعرفة التوقيت العربي أثناء الاعتدال الربيعي والخريفي (اعتدال الليل والنهار مرتين في العام، حوالي 21 مارس و23 سبتمبر) عندما تغرب الشمس في الساعة السادسة تقريباً، ليس على المرء سوى إضافة ست ساعات إلى التوقيت الأوروبي. ولكن تحويل التوقيق الأوروبي إلى توقيت عربي في بقية أشهر السنة عملية تتطلب حسابات معقدة.

وأذكر أن بعض الساعات العامة في اسطمبول كانت عام 1906 تحمل التوقيت العربي على أحد وجهيها والتوقيت الأوروبي على الوجه الآخر.

ولا أعتقد أن في اسطمبول اليوم ساعة واحدة تعمل بالتوقيت العربي. فقد لعب الراديو دوراً مهماً في تعريب عامة الناس بالتوقيت الأوروبي، لأن على المرء أن يعرف التوقيت الأوروبي لكي يتمكن من معرفة أوقات النشرات الإخبارية العالمية. ويمكن الآن لكل فرد في الجزيرة العربية تلقي أي مقدار من التعليم أن يعرف التوقيت الأوروبي تمام المعرفة.

أما أوقات الصلاة الإسلامية فما زالت تحدد بموجب التوقيت العربي وعليه فإن كل الجوامع تتبع هذا التوقيت، ولا بدّ من التذكير بأن

هناك خمسة أوقات للصلاة الإسلامية. فقبل شروق الشمس بساعتين يسمع صوت المؤذن من على المئذنة يدعو المسلمين لصلاة الفجر، وينهي الآذان بالدعوة المؤثرة (الصلاة خير من النوم.. الصلاة خير من النوم...).

أما الآذن الثاني فيأتي بعد حلول الظهر بقليل، والأذان الثالث بعد انقضاء ثلاثة أرباع اليوم، عندما يكون خيال المرء مساوياً لطوله. ويأتي الأذان الرابع بعد غروب الشمس، والخامس بعد انقضاء ساعة ونصف على غروبها، أي الساعة الواحدة والنصف بالتوقيت العربي.

وهناك اعتقاد سائد في أوساط الأوروبيين، لسبب غير معلوم، بأن المسلمين يصلون عند شروق الشمس، وغالباً ما يقرأ المرء هذا الاعتقاد في الروايات وكتب الرحلات كما في كتاب «السير والترسكوت» مثلاً. وهذه الملاحظة غير صحيحة لأن شروق الشمس ليس أحد أوقات الصلاة الإسلامية. فصلاة الفجر اختبار حقيقي لتقوى الناس، وربما يكون صحيحاً – في هذه الأيام التي يتراجع فيه الإيمان – أن عدد الذين ينهضون قبل الفجر لأداء الصلاة في ليلة باردة ومظلمة من ليالي الشتاء ينخفض باستمرار.

كان زويمر متكلماً بليغاً في مقر خدماتنا الطبية في البحرين. وقد كانت خطبه مدروسة بعناية، وكنت أتعلم منها الكثير. ولا أزال أذكر بشكل خاص سلسلة من الخطب التي ألقاها على المرضى عن المسبحة. فالمسلم، كالمسيحي الكاثوليكي والبوذي، يستعمل

المسبحة، وتتألف مسبحة المسلم من 99 حبة، كل حبة تحمل اسماً من أسماء الله الحسنى وهناك حبة طويلة خاصة تجعل العدد مائة. وتعرف هذه الحبة الطويلة «بالشاهد» وما زلت أذكر زويمر وهو يحمل المسبحة في يده ويكرر بعربية طلقة: «الاسم الذي لا اسم فوقه».

وكان زويمر مولعاً بمقارنة المقاييس والأخلاقيات المسيحية بالمقاييس والأخلاقيات السائدة في البحرين، وما زلت أذكر حديثاً له سمعته منذ سنين حول الاستقامة. فقد بدأ زويمر حديثه بسؤال الحضور: «هل اشترى أي منكم علبة ثقاب؟» وبالطبع سبق لكل الحضور أن اشتروا علبة ثقاب. «وهل اشترى أي منكم علبة ثقاب ناقصة؟» وبالطبع لم يشتر أي منهم علبة ثقاب ناقصة. «وهل اشترى أي منكم صندوقاً يحتوي على دزينة علب ثقاب؟ وإذا كان كذلك فهل احتوى أي صندوق على أقل من دزينة؟». وهنا أيضاً اتفق الجميع على أن كل صندوق كان مكتملاً. وسألهم أخيراً: «هل سمعتم بأي صندوق كبير لم يكن مليئاً بصناديق صغيرة والصناديق بأعواد ثقاب؟».

وأجابوا حرفياً: «والله لم يسمع أي منا بشيء كهذا».

وهنا قال لهم زويمر: «ولكنكم عندما تشترون صندوق تمر من السوق تقومون بإدخال عصا حتى قعر الصندوق للتأكد من أن الصندوق مليء بالكامل».

وفهم الجميع المقصود. فقد كانوا يعرفون أن التشبيه صحيح. وبالطبع يجوز السؤال إذا كان من الحكمة أن نقارن دينهم بديننا بشكل

ليس في صالح دينهم، ولكن الأمر يعتمد على كيفية إجراء المقارنة. وعلى الخطيب أن يكون متمكناً من لغة المستمعين لكي يستطيع التحدث حول أمور مزعجة دون أن يغضبهم أو يجرح مشاعرهم[1].

وكان زويمر يتحدث في المستوصف ذات صباح حول خطيئة الإنسان الأولى، عندما قاطعه رجل قائلاً: «إن آدم لم يخطىء. فقد كان مكتوباً عليه أن يأكل من الفاكهة المحرمة». وتدل هذه الملاحظة على نقطتين في الإيمان الإسلامي: أولاً إن كل الأنبياء بلا خطيئة – والمسلمون يعتبرون آدم نبياً، وثانياً إن الإنسان ليس حراً أو مخيراً وإنما يعيش مصيره المحتوم من يوم إلى آخر. فمصيره مكتوب على جبينه، ولا يمكنه عمل شيء لتغييره. وهذا الإيمان ظاهر أيضاً في شعر عمر الخيام[2].

---

(1) لعل هذه المقارنة تبدو لأول وهلة معقولة، ولكن ما شأنها بالدين وإن كان المقصود هو الغش بالسلمة فتلك ظاهرة سلوكية يرتكبها ضعيف النفس أيا كانت ديانته.

(2) من الواضح أن الكاتب لم يتعرض البتة لأي نوع من القراءة الفلسفية الإسلامية وهو يرسل تعليقاته على ما شاهده من ردود أفعال البسطاء من الناس في فترة تاريخية انتشر فيها الجهل، ولو قرأ حتى الحدود الدنيا في الفلسفة الإسلامية. التي كانت وقتها متوافرة في الغرب لعرف الكثير من منطق (المُخير والمُيسر).

الخبرات الطبية في البحرين

عاصرت أثناء خدمتي في البحرين لأكثر من خمس سنوات انتشار وباءين ساريين هما الطاعون الدبلي والكوليرا، وكان وباء الطاعون متوقعاً مرة كل سنتين تقريباً. وما زال باستطاعتي استعادة صوت «شارون تومس» وهو يدخل حديقة «بيت جومان» في أوائل الصيف قائلاً «الطاعون وصل»، وبدا لي أن شارون قال الجملة بمتعة ظاهرة. وكنت وقتها جالساً على الشرفة مع زوجتي ندرس العربية، وكان قوله حدثاً قطع الروتين اليومي.

والطاعون مرض مثير للاهتمام. ورغم أن علاقته بالجرذان قد لوحظت منذ العصور القديمة، فلم يثبت أن برغوث الجرذ هو الذي ينقل العدوى إلا في العصر الحديث، فقد جاء في الفصلين الخامس والسادس من الكتاب الأول لصموئيل (في الإنجيل) ذكر الطاعون: «الصولجان الذي ضرب الفلسطينيين» فلو استعملت كلمة «التورم» أو «الغليان» بدلاً من الصولجان لاتضحت الصورة بكثير ومن الواضح أن المرض كان وباءً لأن الفلسطينيين كانوا يموتون بأعداد كبيرة. وقد استدعي رجال الدين والحكماء للمشورة حول كيفية التصرف

إزاء الوباء. ومن الجدير تسجيل مشورتهم لأنها ربما كانت المرة الأولى التي يربط فيها ما بين الجرذ والدبل في ما يعرف بالطاعون الدبلي[1]. فبماذا نصح رجال الدين والحكماء؟.

لقد اقترحوا وجوب إِعادة قوس الإِله للإِسرائيليين على أن يوضع في داخله خمسة صولجانات ذهبية وخمس فئران ذهبية. ولم يكن التمييز ما بين الفئران والجرذان واضحاً في العبرية والعربية، وحتى اليوم لا يمكنك التأكد إذا كان المرء يتكلم عن «الجرذان» أو «الفئران».

وكانت الطريقة الوحيدة لمواجهة وباء الطاعون تعتمد منذ أربعين عاماً - كما هي اليوم - على اللقاح أو التطعيم. وقد أدى استعمال لقاح «رافكين» الشهير الذي اكتشف في الهند إلى إنقاذ أرواح معظم المصابين بالوباء. وكانت الجرعة في ذلك الحين خمسة سنتيمترات مكعبة للرجل وأربعة سنتيمترات مكعبة للمرأة، وكان اللقاح يُعطى في العضل. وكان اللقاح ساماً جداً ويُحدث ردود فعل حادة في الجسد. وقد أمرضني اللقاح عندما أصبت بالطاعون، فانتفخت ذراعي إِلى ضعف حجمها العادي، وأصبت بالهذيان ليلة كاملة.

وكان الناس عند ظهور أول إشارة تدل على قدوم الطاعون - يتفحصون باطن أذرعهم وحول أفخاذهم بقلق بحثاً عن التورمات، وخاصة إذا صحبتها حرارة. ولم يكن من السهل حث موظفي الإرسالية

(1) الدبل هو ورم في الغدة اللمفاوية.

على التطعيم إلى أن تعلم الناس درساً لا يُنسى في إحدى السنين. فقد كان كل موظفي الإرسالية في ذلك الوقت يسلمون أنفسهم لحقنة التطعيم باستثناء البستاني، الذي رفض التطعيم قائلاً إنه يثق بالله وعندما يأتي أجله فلن يؤخره شيء. وقد أصيب البستاني بالطاعون بعد أيام قليلة ومات. وكان هو الموظف الوحيد من موظفي الإرسالية الذي أصابه الطاعون. ولم يضع الدرس هباء.

واستيقظت زوجتي ذات ليلة على صوت الآذان وهو ينطلق من عدد لا يحصى من سطوح البيوت. وكان هذا شيئاً فريداً لم أعهده من قبل. فالأذان ينطلق خمس مرات في اليوم بحسب الأوقات المحددة للصلاة من الجوامع فقط وليس من سطوح المنازل. وسألنا في الصباح عما حدث، فقيل لنا: «كنا نصلي لله لكي يبعد الطاعون عنا».

وقلت لهم: «لكنكم تؤمنون بالقدر وبعدم إمكانية عمل أي شيء لرده». وأجابني أحدهم جواباً ما زال يطن في أذني بعد أربعين عاماً: «ماذا نستطيع أن نفعل؟».

وحقاً ماذا يستطيعون أن يفعلوا؟ فالإنسان يلجأ إلى الله في الظروف الصعبة بغض النظر عن عقيدته الدينية.

ولنعد إلى الجرذان. فقد كانت أول علامة على وجود الطاعون منظر الجرذان الميتة في الشوارع وفي البيوت. وقد كانت هذه إشارة متأخرة فعلاً. فالجرذان تمرض أولاً، وعندما تموت تكون براغيثها قد غادرتها. ورغم أن براغيث الجرذان لا تعيش على الإنسان فإنها تفضل

أن تتغذى من الإنسان بدلاً من أن تموت جوعاً. ولم يكن عامة الناس يعرفون كل هذا، لكنهم كانوا يعرفون أنه عندما تجر الجرذان نفسها بضعف لتموت على الشوارع يكون الطاعون قريباً.

وما زلت أذكر ليلة مقمرة استيقظت خلالها وشاهدت جرذاً يحاول تسلق المغسلة بصعوبة. (فالجرذان المصابة بالحمى تبقى دائماً عطشى). ولم يتمكن الجرذ الضعيف من تسلق المغسلة فسقط على الطاولة ميتاً. وقفزت فوراً من فراشي، وأمسكت الجرذ بكماشة وحملته إلى الشرفة، ثم سكبت عليه كاز المصباح وأشعلت فيه النار. وبعد أن أصبح الجرذ رماداً، أخذت حماماً وارتديت ثياب نوم نظيفة.

أما وباء الكوليرا فلقد كان مخيفاً أكثر من الطاعون. وكان يجتاح البحرين كما تجتاح النيران الغابة، ويقتل مئات من الناس في بضع ساعات. ويتهاوى الشخص على الطريق ليكون بعد وقت قصير في القبر. وكان الرعب من تلك الصورة يوهن المعنويات لدى السكان، فقد سبق وفنيت أكثر من عائلة بكاملها، إذ دخلت أكثر من بيت كان كل من فيه من الرجال والنساء والأطفال أمواتاً.

وكان من الصعب دفن الجثث. فالجميع كانوا يرفضون لمس الجثث. والجميع كانوا يرفضون البقاء في المقبرة مدة حفر قبر بعميق مناسب. وكانت النتيجة حفر حُفر غير عميقة ولا تكاد تغطي الجثث.

وكانت الكلاب تقوم ليلاً بنبش الجثث، ولا يحتاج ما يحصل عند ذلك إلى وصف. وكانت المقبرة تقع خلف بيت إرساليتنا الجديدة، وعندما كانت تهب الريح من المقبرة باتجاه البيت كان يصبح السكن فيه صعباً وغير محتمل.

ولقد تخلصت البحرين منذ زمن طويل من الطاعون والكوليرا. فقد تم القضاء على الطاعون بوساطة الخدمات الطبية والوقائية، واختفت الكوليرا منذ بدأت الآبار الأرتوازية تزود المدينة بمياه الشرب، ولم يعد الناس مضطرين لشرب المياه السطحية. وآخر مرة انتشر فيها الطاعون أو الكوليرا في البحرين كانت منذ عشرين عاماً تقريباً[1].

وفي مجال الحديث عن الأمراض سأتعرض باقتضاب إلى مرض الجدري الذي كان يستوطن البحرين. وكانت هناك دائماً بعض حالات الجدري المخفية هنا أو هناك. فقد كان ينظر إليه على أنه «من الله» فإما الشفاء منه أو الموت به. ولم يكن أحد ليستدعي الطبيب إذا أصيب بالجدري. فلم يكن هناك علاج له. ولم يُطلب مني طوال السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية معالجة الجدري إلا في حالات نادرة جداً.

ومن الأرجح أن الجدري هو السبب في نسبة عالية من الإصابات بالعمى في الجزيرة العربية. وكان من الممكن حتماً حماية هذه العيون لو أنها عولجت وأبقيت نظيفة أثناء الإصابة بالمرض.

---

(1) إذا افترضنا أن الكاتب كتب مذكراته في أواخر الأربعينيات، فإن الإشارة هنا قد تكون أواخر العشرينيات.

والتطعيم ضد الجدري منتشر حالياً في أوساط الناس، ونحن نأمل بثقة أن يختفي لدى الجيل القادم منظر الوجه المنقور بالجدري والعينين اللتين لا تبصران. ولكن يجب ألا نكون متفائلين أكثر من اللزوم، فخلال الثمانية عشر عاماً الماضية كانت الكويت عرضة لوباء جدري خطر (عام 1932 على ما أذكر) قتل ثلاث آلاف شخص على الأقل، وقضى تقريباً على كل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ثلاث وعشر سنوات، على الرغم من وجود حملة تطعيم مكثفة. وقد ساعد هذا الوباء على ضعف الثقة بالتطعيم مؤقتاً، ولا عجب في ذلك. فعلم الأوبئة لم يصبح علماً بالمعنى الصحيح حتى الآن[1].

وما زالت إحدى الحالات الطارئة القديمة راسخة في ذهني. فقد ضربت البحرين ربما أسوأ عاصفة في تاريخها: مزيج من الرعد والبرق والأمطار الغزيرة والرياح العاصفة. وأضحت المدينة كالبحيرة. وقد تمزقت أعداد كبيرة من الأكواخ المصنوعة من الحصر، بيوت الفقراء، وحملت الرياح بعضها مسافات بعيدة. ولحق الضرر بكل بيت في المدينة. وتسربت المياه من كل سقف. وتمزق علم الشيخ وتكسرت ساريته إلى اثنتي عشرة قطعة صغيرة وكأنها عود معكرونة. ولكن العلم المرفوع أمام منزل ممثل الحكومة البريطانية صمد أمام العاصفة، مما أدى إلى انتشار بعض الخرافات حول هذه الظاهرة.

---

(1) يبدو للوهلة الأولى أن الكاتب يخلط بين حديثه عن البحرين ثم إشارته للكويت، ولكن إن أخذنا بعين الاعتبار أنه كتب مذكراته هذه في الكويت فالإشارة هنا إلى حدث تاريخي قد تبدو معقولة في السياق.

وتم إعداد علم جديد ليحل محل العلم الذي كسرته العاصفة. وأعدت لذلك حفلة رسمية أطلقت المدفعية أثناءها تحية للعلم. وكان المدفع الذي استعمل في إطلاق التحية من النوع الذي يُحشى حشواً، ويرجع تاريخه إلى أيام غزو البرتغاليين للبحرين. وكان من الضروري تنظيف ماسورة المدفع بعد كل طلقة لإزالة فتات البارود الذي علق بها.

ولم يقم ملقم المدفع في إحدى المرات، بإدخال قطعة الإسفنج إلى نهاية الماسورة لتنظيفها، مما ترك فتات بارود صالحاً فيها. وعندما وضع قنبلة جديدة في المدفع انفجر المدفع فوراً. وأصيب الملقم بجروح بليغة وفقد عينيه، وزالت بشرة وجهه كلها تقريباً، ونزف الدم من أنحاء جسمه بغزارة.

وقام زملاء المصاب فوراً، كإسعاف أولي، بذبح خروف أسود وسلخوا جلده بسرعة ثم لفوه به. وقد أحضر المسكين بهذه الصورة إلى المستشفى. وقد يبدو الأمر غير قابل للتصديق، ولكنه ظل ثمانياً وأربعين ساعة على قيد الحياة. وقد كانت درجة حرارته عند وفاته أعلى درجة حرارة لمستها في حياتي لا أذكر الآن كم بالضبط، إنما أحسب أنها كانت 108 درجات مئوية تقريباً.

وسأتحدث الآن عن الأمراض الناتجة عن الحشرات الطفيلية. وقد انتشر أحد هذه الأمراض في البحرين منذ أربعين عاماً، وكانت له أسماء عديدة، فقد سمي «دودة غينيا» و«دودة لنفا» و«دودة زنجبار» و«بيوك» أو «فيوك». وكان اسمه العلمي حينئذٍ دراكيو كلس مدينسيس

وتبين فيما بعد أنه ينتمي إلى فيلاريا Dracuclus medinensis وسيرة حياة هذه الحشرة الطفيلية مثل باقي Filariae madinensis الطفيليات، ممتعة بشكلٍ خاص. فالمريض يأتي إلى المستشفى ويشكو من تقرح ينز أوساخاً ويكون في الجزء السفلي من الساق عادة، أو فوق القدم في الحالات الأسوأ. ويظهر الفحص دودة بيضاء لماعة تشبه vermicelli في التقرح، ويطل جزءاً منها. ويقوم الطبيب بلف الجزء الظاهر من الدودة حول عود ثقاب لكي لا تتمكن من التراجع إلى داخل نسيج الساق. ومن المستحيل عادة سحب الدودة خارج الساق، خاصة إذا كانت ملتفة حول الأوتار كما هو الحال عند خروج الدودة من باطن القدم مثلاً. وهكذا فإن العلاج المعروف هو لف جزء صغير من الدودة كل يوم حول عود ثقاب إلى أن نتمكن من إخراج الدودة كلها.

ويصل طول الدودة المكتملة النمو إلى 18 بوصة (45 سنتيمتراً تقريباً). وتكون هذه الدودة عادة أنثى وتترك جسم الإنسان من أجل وضع أجنتها الحية، إذ إنها لا تضع بيضاً. ولكي تعيش هذه الأجنة يجب أن تلقى في الماء. وقد تدبرت الطبيعة هذا الأمر بعناية. فالمريض يذهب إلى البئر بصورة منتظمة لأخذ الماء ولغسل تقرحه، وأثناء غسل تقرحه تعود أجنة عديدة من ساقه إلى البئر دون أن يدري. ماذا يحدث للجنين حينئذٍ؟ بعد سقوط الجنين في الماء يبتلعه برغوث الماء. وهو حيوان أشبه بالسرطان (السلطعون). ويبدأ الجنين أولى

مراحل نموه داخل برغوث الماء[1]. وأثناء قيام الناس بشرب ماء البئر يبتلعون براغيث الماء. وتهضم إفرازات معدة الإنسان براغيث الماء لكنها لا تهضم جنين الدودة الذي يبدأ في المعدة مرحلته الثانية من النمو. ويشق طريقه عبر حائطها ليستقر في العضل حيث يبلغ مرحلة النضوج. وعندما يصبح الدود جاهزاً لوضع نتاجه يخرج من جسم الإنسان من خلال بطانة الجلد في أكثر الحالات.

وكل ما هو مطلوب لحماية النفس من هذا المرض قيام المرء بتصفية المياه التي يشربها بوساطة منديل جيب، لأن براغيث الماء تعلق بالمنديل. ولكن حتى هذا الإجراء الوقائي لم يكن متبعاً. وإن شك عامة الناس بهذه الوسائل أمر معروف تماماً، وقد انتزعت مرة إحدى عشرة دودة غينيا من مريض واحد.

وقد لا يتمكن المريض أحياناً من انتزاع الدودة بكاملها وأذكر مرة لاحظت خلالها شيئاً يتحرك تحت جلد ذراع مريض كان ممدداً على طاولة العمليات ينتظر بدء الجراح بإجراء العملية. وحالما تم تخدير المريض قمت بإحداث شق بسيط في ذراعه وأخرجت دودة غينيا كاملة. وتقبع هذه الدودة الآن في وعاء في أحد المتاحف.

أما حالات الإصابة بدودة غينيا في البحرين اليوم فمنتشرة بين الأغراب، خاصة من بلاد فارس. وقد ساعدت عمليات حفر الآبار الارتوازية على قهر هذه المشكلة في البحرين، لأن عدم ابتلاع الناس

---

(1) برغوث الماء حيوان مائي ذو عين كبيرة متوسطة الوضع هي في الواقع عين مزدوجة.

لبراغيث الماء أثناء شربهم يحول دون وصول دودة غينيا إليهم، ولأن برغوث الماء لا يستطيع الوصول إلى منابع الآبار الارتوازية على عمق مئات الأقدام. وبخروج براغيث الماء من الصورة تكسر الحلقة ويقهر المرض وينتهي انتشاره. ويبقى فقط المرضى الذين يحملون المرض ويحتاجون إلى علاج.

ولديّ سبب وجيه يذكّرني بإحدى الجراحات الأولى التي قمت بها. وكانت العملية تتعلق بمرض قدم مادورا Madura foot، وهو مرض محزن يسببه نوع من الفطر يبدأ بالجلد ويتجه إلى أسفل الجسم وإلى داخله حتى يحول كل الأنسجة إلى مجموعة من الأنفاق والجيوب المليئة بالقيح ذي الرائحة الكريهة. وقد وصل المريض من «ساحل القراصنة» يصحبه ستة رجال أشبه بالمتوحشين مدججين بالخناجر والبنادق والمسدسات. ولم يتخل أولئك الرجال عن سلاحهم لحظةً واحدة، وأعتقد أنهم يشعرون بأنهم عراة بدونه. وعندما أخبرتهم أنه يجب قطع قدم المريض وافقوا فوراً. وقالوا إن هذا ما جاؤوا من أجله، وإن عليّ قطعها فوراً. وشرحت لهم ضرورة ترتيب بعض الأمور أيضاً فوافقوا على مضض فالعربي متسرع وفوري ويكره الاستعداد أو التحضير لأي أمر. «فالقدر» يقرر مصير الناس والأشياء في هذا العالم. وليس على الإنسان إلا الاستسلام لذلك المصير[1].

---

(1) هذا استنتاج متسرع من المؤلف.

وعندما حل موعد إجراء العملية كان أصحاب المريض هناك بكامل أسلحتهم. وكانت تلك تجربة مخيفة بالنسبة لجراح مبتدىء مثلي، ولكن العملية سارت بنجاح ولم تكن هناك حاجة لاستعمال السلاح. وقد تساءلت كثيراً فيما بعد عن كيفية تصرفهم تجاهي فيما لو مات المريض أثناء العملية، أو في حال حصول خلل رئيسي في غرفة العمليات. ربما كانوا لن يفعلوا شيئاً، ولكن لا سبيل إلى التأكد من صحة هذا الافتراض.

كان يحكم البحرين في تلك الأيام الشيخ عيسى بن علي آل خليفة المشهور الذي كان قد نصب كشيخ للبلد عام 1867[1]. وكان حينها رجلاً متقدماً في السن ذا لحية بيضاء. قد كنت وإياه صديقين حميمين، وغالباً ما كان يستدعيني لمعالجته ومعالجة المقربين منه. وقد باعني أرضاً كبيرة خلف مستشفى ماسون التذكاري[2] بقيمة 400 روبية، وهذا سعر رمزي طبعاً، وربما تساوي هذه الأرض 100000 روبية اليوم. وقد منحني مساحة إضافية ملحقة بمنزلي، مكنتني من إقامة ملعب للتنس في الجانب الظليل من المنزل، وكان دائماً كريماً في مكافأتي على خدماتي، وأعطاني العديد من أكياس الروبيات الفضية، التي حولتها لتدعيم وضع المستشفى المالي.

(1) نصب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكماً للبحرين سنة 1869.
(2) مستشفى ماسون التذكاري هو مستشفى الإرسالية الأمريكية في البحرين، وما زال قائماً في المكان نفسه في المنامة.

الكويت

الكويت عام 1911

زرت الكويت لأول مرة في يوليو (تموز) عام 1911. فما الدافع لهذه الزيارة؟ كنا ندرك لسنين عديدة، وفي الواقع منذ إنشاء الإرسالية العربية الأمريكية، أن الكويت مدينة ذات أهمية استراتيجية عظيمة. فهي بموقعها ما بين العراق في الشمال والأحساء في الجنوب تسيطر على رأس الخليج «الفارسي» وتتمتع بميناء ممتاز، ربما كان الميناء الطبيعي الممتاز الوحيد على الساحل الشرقي للجزيرة العربية.

وقد كانت الكويت، حتى عام 1918، البوابة الكبيرة لنجد وداخل الجزيرة العربية. وكانت قوافل الجمال الكبيرة تنطلق منها باستمرار وهي تحمل منتجات العالم إلى أسواق الرياض وبريدة وعنيزة وشقراء[1]. فقد كانت كل المواد والبضائع التي يحتاجها العربي في الداخل، مثل الكاز والثقاب والأواني المعدنية والساعات، تصله عبر الكويت.

وكانت الكويت أيضاً مركزاً عظيماً للغوص بحثاً عن اللؤلؤ وكان

(1) مدن نجد.

فيها عام 1911 ـ ثمانمائة مركب[1] يعمل على ظهرها 20.000 رجل في مجال الغوص. ولم يكن كل هؤلاء مواطنين كويتيين، فقد جاؤوا من كل حدب وصوب. ولكن بناء المراكب وإعدادها وتموينها لرحلات الغوص يتم في هذه المدينة الكبيرة بمينائها الممتاز. وكان يجري فيها تنظيم كل ما يتعلق بعملية الغوص بحثاً عن اللؤلؤ.

وكانت مراكب الغوص تشكل جزءاً مهماً من قوة الكويت البحرية، ولكنها تعتمد بدورها على الأسطول الرائع من البواخر المبحرة باتجاه الهند وحتى زنجبار للمتاجرة حاملة التمر من البصرة وعائدة بالأخشاب والقهوة من ملابار، والبضائع المختلفة من بومباي، والأرز من كراتشي، وأعمدة للسقوف من شرقي أفريقيا.

وكان النشاط الساحلي كبيراً أيضاً. فقد كان هناك أسطول كبير من القوارب الصغيرة يتولى أمر التجارة المهمة مع موانىء الخليج «الفارسي». وإذا أضفنا إلى ذلك أسطول صيد الأسماك والسفن التي تبحر ما بين الكويت وشط العرب لتزويد الكويت بمياه الشرب، يتجمع لدينا أسطول كبير من السفن.

ويبلغ طول ميناء الكويت ثلاثة أميال وقد بنيت على طول هذه المسافة أرصفة ممتازة يمكن للسفن المبحرة الرسو فيها في مختلف الأحوال الجوية. ولولا هذه الأرصفة لكان النشاط البحري في الكويت

(1) انظر الملحق رقم – 1 – حول صناعة السفن.

مستحيلاً، لأن الساحل مفتوح أمام كل الرياح، وأمام الأمواج العالية التي تحركها هذه الرياح.

ويبلغ علو المد 12 قدماً على ما أعتقد. وهذا يعني أن السفن تكون مرتفعة وجافة أثناء الجزر مما يجعلها في وضع مثالي للتنظيف والتزييت وإغلاق الشقوق. والسفن الكويتية ذائعة الصيت في الخليج «الفارسي»، ولا يجارى صانعوها في المهارة. ونادراً ما يقوم صانعو السفن بوضع رسومات ومخططات لبنائها، وكانت خطوطها وتناسقها وانحرافها العلوي طولياً (من وسط السفينة إلى كل من طرفيها) من الدقة بحيث تصل إلى درجة الروعة والإتقان.

وكانت الكويت عام 1911 مدينة طويلة وضيقة مبنية على الشاطىء الجنوبي لخليج الكويت، يتراوح عدد سكانها آنذاك بين أربعين إلى خمسين ألف نسمة. أما طول الكويت في تلك الأيام فكان ميلين ونصف الميل. وكانت المدينة كلها عربية «وحتى الحمالين كانوا عرباً».

وكان يرأس البلد الكهل العظيم الشيخ مبارك الصباح. فهو صانع الكويت الحديثة، وهو رجل يتمتع ببعد الرؤيا والمقدرة الكبيرة. وكانت تساعده حكومة قديرة وكان النظام والهدوء سائدين ليلاً ونهاراً، وقد امتد نفوذ مبارك إلى الصحراء. وكان شيخ العشيرة الحقيقي. ويدين الملك ابن سعود العظيم بالفضل في تدريبه المبكر للشيخ مبارك، لأنه أمضى حداثته في الكويت. وقد أحب مبارك ذلك

الشاب الصغير وقام حتماً ببلورة شخصيته في تلك الفترة المهمة من حياته. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا مبارك لما تمكن ابن سعود من أن يصبح الشخصية التاريخية القادرة والذي يعترف الجميع اليوم بأنه كان أعظم عربي منذ أيام الخلفاء الراشدين.

وما زلت أسترجع صورة مبارك بإعجاب عظيم. وكأني به على الشرفة جالساً في مجلسه، والبحر إلى يساره وكبار رجال المدينة إلى يمينه في صف طويل يبلغ ثلاثين رجلاً أحياناً، يقف قبالة هؤلاء خمسون حارساً مسلحاً لا يدع انضباطهم العسكري مجالاً للشك بولائهم المطلق وطاعتهم العمياء للشيخ مبارك.

وكان مبارك في الواقع يمسك مصير الكويت بيده. كان نحيفاً، وكانت عيناه ثاقبتين تخترقان محدثيه، وتمكنانه من الحكم عليهم بدقة، وكان وجهه قوياً يعكس قوة الإرادة والتصميم، كان وجهه وجه قائد بالسليقة. وكان بعيد النظر يستبق رعاياه في النظر إلى المستقبل، يلم بالشؤون العالمية بشكل مدهش في ذلك الوقت. وقد كان مبارك محظوظاً وكان رعاياه يعرفونه حق المعرفة ويثقون به.

وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية. وكانت كلمته قانوناً ولم يكن يسمح لأي من رعاياه بالاحتفاظ بعربة أو حتى بجواد للركوب. أما المسنون أو المقعدون فكانوا يركبون حميراً متواضعة. وكان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة نقيب البصرة، السيد رجب[1]، الذي كان صديقاً

---

(1) السيد رجب باشا النقيب.

حميماً لمبارك والشخصية الدينية الرئيسية في البصرة (وكبير رجال الدين في البصرة). وكان النقيب – في مناسبات خاصة فقط – يقود عربة فخمة يجرها حصانان. وهكذا فقد كان مبارك «يكرم أهل الدين أكثر مما يكرم أهل الدولة». ولكن النقيب كان يمشي في معظم الأوقات.

وكان من عادة الشيخ مبارك أن يقوم بجولة رسمية في السوق بعد ظهر كل يوم، حيث يركب عربة جميلة من طراز «فكتوريا» يجرها حصانان بديعان، ويسير بتمهل عبر الأسواق، ويتوقف أمام المقهى القديم (الذي هدم الآن) لعقد مجلس رسمي. وكان حفيده الصغير صباح يجلس على يساره في العربة وهو يرتدي الثياب المزركشة بالذهب التي كانت تضفي الروعة على الموكب. وكانت وفاة مبارك في يناير 1916 كارثة بالنسبة للكويت[1].

وهناك حقيقة أخرى حول مبارك من الجدير تسجيلها، وهي أنه كان محدود الاختلاط الاجتماعي. فقد كان هناك بيتان أو ثلاثة بيوت في الكويت فقط يزورها مبارك أو يقبل دعوتها للطعام. لكنه مع ذلك لم يكن معزولاً عن رجل الشارع أو عن البدو في الصحراء. فقد كان بمقدور أي إنسان له قضية أو مشكلة أو طلب أن يقابله دون مشقة.

---

(1) ذكر لنا الكاتب في الملحق رقم (2) تاريخ وفاة الشيخ مبارك يوم 28 نوفمبر سنة 1915. وهو التاريخ الصحيح لوفاته الموافق لشهر محرم سنة 1334 هـ، وفي هذه الصفحة ذكر لنا تاريخاً آخر وهو يناير 1916. ويبدو أن الكاتب اختلط عليه الموضوع وقد تركناه كما هو لدقة النقل العلمي وعدم التدخل في السياق.

وكان يوجد خلف المدينة وبعيداً عن البحر الخلاء الكبير حيث تتجمع قوافل الجمال المنطلقة إلى الصحراء والقادمة منها. وكان يجري إعادة تصدير جزء كبير من البضائع القادمة إلى الكويت من الهند إلى نجد والداخل.

ومن المشاهد الاعتيادية في تلك الأيام رؤية خمسمائة جمل رابضة في «الصفاة» وكانت أهمية الكويت التجارية تبدو جلية حتى للزائرين. وقد تجمع في ساحة الصفاة ذات مرة ألف جمل.

ويحمي مدينة الكويت اليوم من جهة الصحراء سور عال ذو أربعة أبواب كبيرة وعليه أبراج حراسة[1]. وقد بني هذا السور في صيف 1920 أثناء تولي الشيخ سالم بن مبارك سدة الحكم، وفي وقت كان يتهدد الكويت خطر غزو (الإخوان) المتمردين على ابن سعود يشنه قائدهم فيصل الدويش. وقد سألت مبارك ذات مرة لماذا لم يبن سوراً حول عاصمته وكان جوابه كافياً وواقعياً إذ قال: «أنا السور».

ما قلته للآن يعتبر مقدمة غير مكتملة للكويت في الرابع من يوليو عام 1911. وصلت قادماً من البحرين على ظهر مركب يصحبني طباخي الغاني المخلص والقدير. وكان وصولي في منتصف الصيف حيث الطقس حار جداً، وكان مفروضاً على كل الركاب البقاء في الحجر الصحي للوقاية من مرض لا أذكره الآن. وقد سارع الممثل السياسي

(1) جرت إزالة السور المشار إليه (عدا البوابات)، بعد التوسع الذي شهدته مدينة الكويت في الخمسينيات.

البريطاني، الكابتن و.هـ. اي – شكسبير، إلى إنقاذي بإصراره على أن أمكث وخادمي معه طيلة مدة الحجر. وقد أكد للسلطات أننا لن نغادر منزله قبل انتهاء تلك المدة. وقد كان الكابتن شكسبير أحد الشباب البارزين في زمنه، وكان موته في الصحراء عام 1916 خسارة كبيرة لحكومة صاحبة الجلالة[1].

(1) قتل الكابتن شكسبير وهو في معية عبد العزيز بن سعود. وقد كان كاتباً بحاثة له عدة مقالات منشورة عن جزيرة العرب. وفي كتاب «تاريخ نجد وملحقاته لأمين الريحاني» تحديد لتاريخ مقتل شكسبير في موقعة (جراب) بين ابن سعود وابن الرشيد في اليوم السابع من ربيع الأول للعام 1333 هـ الموافق 24 كانون الثاني للعام 1915م، وقد قيل إن مصرعه كان بسبب ملابسه فقد رفض أن يتزيا بالزي العربي لإخفاء هويته (كما فعل لورنس بعد ذلك).

تأسيس أول مستشفى في الكويت

كانت الإرسالية العربية الأمريكية ترغب، قبل زيارتي إلى الكويت عام 1911 بسنتين، في إنشاء فرع لها في الكويت.

وقد زارها زويمر وجيمس مورديك ولكن الشيخ مبارك منعهما من البقاء طويلاً فيها. ولم يسمح لشارون تومس كذلك بمغادرة السفينة والنزول إلى اليابسة.

وكان يوجد منذ مدة، في الخزينة في نيويورك مبلغ من المال مخصص لافتتاح مستشفى في الكويت. وقد قدم اقتراح أثناء الاجتماع السنوي للإرسالية عام 1909، حسب ما أذكر، يطلب من المجلس الاتصال بالمتبرع لإقناعه بتحويل المبلغ المخصص للكويت إلى بلد آخر. ويسرني القول إن الاقتراح قد رفض.

وقام آرثر بينت، رئيس وحدتنا الطبية في البصرة بعد هذا الاجتماع بوقت قصير بزيارة بلدة تدعى «المحمرة» وهي تعرف الآن باسم «خورامشهر». وكانت هذه البلدة مقر إقامة وقيادة الزعيم الإيراني القومي خزعل[1]. وكان مريضاً بالسكري حيث كان بينت

(1) من المعروف أن خزعل حاكم عربي، كان يحكم عربستان حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى بقليل، وكان صديقاً=

يعالجه. وكان يزور خزعل في ذلك الحين كل من الشيخ مبارك والسيد رجب من البصرة. وقد كان خزعل والسيد رجب يحترمان بينت ويقدرانه، فحدثا الشيخ مبارك عنه. وطلب مبارك من بينت الذهاب إلى يخته لفحص إحدى بناته الصغيرات التي كانت تشكو من ألم في عينيها. ووافق بينت بالطبع، وكشف على البنت ثم أجرى لها عملية جراحية. وقد تماثلت البنت للشفاء وسر مبارك بذلك كثيراً.

وقام بينت بعملية أخرى أكسبتنا الشهرة. فقد كان أحد أبناء السيد رجب يعاني من تورم في العنق، وقد أرسله والده إلى الهند حيث فحصه عدد من الاختصاصيين ورفضوا إجراء عملية جراحية له. وقد عرضه والده على بينت الذي نصح بإجراء جراحة له. ووافق والده على إجراء الجراحة، وأجرى بينت الجراحة بنجاح وأزال التورم وكان المريض لا يزال حياً في يوليو عام 1949 (وقت كتابة المذكرات).

وقد أصبح بينت صديقاً حميماً للسيد رجب والشيخ مبارك بالإضافة إلى خزعل طبعاً. وأصبح هؤلاء الرجال الثلاثة الأقوياء والنافذون ميالين إلى فكرة افتتاح مستشفى للإرسالية الأمريكية في الكويت. وقام بينت، في هذه الأثناء بزيارة الكويت عدة مرات وترك انطباعاً جيداً هناك. وكان لديه مساعد كفء - عراقي مسيحي - تركه في الكويت للإشراف على مستوصف صغير وإجراء الإسعافات الأولية.

= حميماً للشيخ مبارك الصباح.

على إثر ذلك طلب الشيخ مبارك من الإرسالية الأمريكية إقامة مستشفى في عاصمته. وقد أرسلت لجنة مؤلفة من جون فان اس وآرثر بينت لمفاوضة مبارك حول موقع مناسب للمستشفى. ونتيجة لهذه المفاوضات امتلكت الإرسالية قطعة أرض مساحتها 270 × 300 قدم. وكانت هذه المساحة نواة ملكيتنا الحالية الضخمة[1].

وحالما باعنا مبارك الأرض، أصر على قيام الإرسالية بإيفاد طبيب مقيم. ولكن كل ما استطعنا عمله كان اقتسام السنة فيما بين بينت وهاريسون وبيني. وبناء على هذا الاتفاق كان عليّ أن أقضي جزءاً من صيف عام 1911 في الكويت.

وبعد أن تركت عملي في البحري ووصلت إلى الكويت اكتشفت عدداً من الأمور فبينما كان الشيخ مبارك يرغب في وجودنا، كان غالبية السكان بمن فيهم العائلات الكبيرة – يعارضون تماماً سياسة السماح للمبشرين المسيحيين بالإقامة في مدينتهم. فقد كان استدعاء طبيب من البصرة لمعالجة إحدى الشخصيات المهمة أمراً مقبولاً، أما إقامة مستعمرة للمبشرين المسيحيين في المدينة فكانت أمراً مرفوضاً رفضاً باتاً.

إلا أن مبارك ظل ودوداً نحوي، يستقبلني بحفاوة عند كل زيارة أقوم بها له. وبالإضافة إلى رفض المدينة لوجودنا فقد كان «الأجانب» يعتبرون ظاهرة غريبة في الكويت عام 1911. وكان الجميع متشوقين

(1) وضعت وزارة الصحة الكويتية يدها على هذا المستشفى، وأصبح تابعاً للوزارة، وما زال مبناه موجوداً في القبلة.

لرؤية مظهرنا. وكانت هذه التجربة جديدة بالنسبة لنا لأن وجود الأجانب في البحرين كان أمراً مألوفاً. أما هنا فقد كان يضايقنا لحاق الناس بنا في الشوارع، وهم يوجهون لنا الكلام اللاذع، ويلقون علينا بالحجارة بين الفينة والأخرى. وقد شعرت بجرح عميق وبإهانة لكبريائي عندما أدركت أنني أعتبر كافراً في الكويت. وتجدر الإشارة إلى أن الفضولية والفظاظة كانت تبدر عن رجل الشارع (والأولاد) فقط.

أما أبناء الطبقات العليا فكانوا متحفظين ومتكبرين، ولكنهم لم ينزلوا أبداً إلى مستوى الابتذال الرخيص كعامة الناس، وقد حافظ هؤلاء على أخلاقهم الحميدة وتأدبهم ولطفهم حتى وإن كانوا يكبتون كرههم لنا. وكان عدد ضئيل منهم فظين معي.

وقد سكنت ذلك الصيف في أحد البيوت العديدة غير المنظمة التي كانت تشكل قصر مبارك. وكان هذا البيت قد أعطي للدكتور «بول هاريسون» من قبل. وكان خالياً تماماً من وسائل الراحة، وحاراً جداً في الصيف. ولكن لا شك لدي بأن مبارك كان يعتبره بيتاً ممتازاً لأنه أحد بيوت قصره.

وقد أجرى بول هاريسون عدة عمليات جراحية، وأدّى خدمات طبية جليلة في الكويت، وقام بإعداد مستوصف بسيط من ثلاث أو أربع غرف، إحداها غرفة عمليات طولها عشر أقدام وعرضها ست أقدام. وكانت طاولة العمليات هي قطعة الأثاث الطبي الوحيدة لأنه أخذها من

مستشفى الإرسالية في البصرة. أما خزانة المعدات الجراحية فكانت عبارة عن صندوقين خشبيين جرى ضمهما بطريقة مرتجلة. ولكن العبقرية، كالعادة، انتصرت على كل العقبات وأجرى هاريسون عدة عمليات رئيسية وعدداً من العمليات البسيطة. وكانت مقدرته تنتزع إعجاب الجميع على الرغم من أنه كان في بداية تجربته العملية.

وقد سررت بوجود القس ج.ج. بنينكز في الكويت، وكان قد وصل إليها قبلي ببضعة أسابيع، لأنه صديق عزيز على هاريسون. وقاما معاً بكسب حلقة واسعة من المعارف والأصدقاء. ومن حسن حظي أنني شاركت في هذه الاتصالات وكنت أقضي أمسياتي في زيارة المعارف والأصدقاء برفقة السيد بنينكز. وقد ساعدني ذلك كثيراً في عملي.

ولكن السيد بنينكز غادر الكويت بعد أسبوع من وصولي وبقيت وحيداً. وكنت الأجنبي الوحيد في الكويت خلال فترة إقامتي لأن الكابتن شكسبير، المعتمد السياسي، كان خارجها. وكانت تلك تجربة قاسية بالنسبة لي لأنني كنت أقضي أياماً دون أن أتكلم الإنجليزية. وقد تحسنت لغتي العربية، ولكنهم كانوا يقولون لي إنني أتكلمها بلهجة بحرانية واضحة.

كانت قطعة الأرض التي باعنا إياها الشيخ مبارك تقع في الطرف الغربي من حدود المدينة، على بعد ميل وربع الميل من مكان سكني. وكنت أمشي إليها مراراً حيث أجلس فوق التلة وهي علامة بارزة في المكان. وأحاول أن أرسم في ذهني ترتيب المباني التي كنت آمل

بأن تشاد يوماً ما. وكانت حدود قطعة الأرض طريفة، إذ كانت عبارة عن أكوام من الحجارة الملقاة بشكل كيفي وحسب همة خدم الشيخ، وبالتالي بدل أن تكون مستطيلة بدت مسبعة الجوانب. وسأتحدث أكثر حول التلة وحدود قطعة الأرض فيما بعد. وقد قررت أن يبنى مسكن الطبيب فوق التلة.

وكنت في هذه الفترة أفتح العيادة يومياً، باستثناء أيام الأحد، وكنت أظل مشغولاً جداً. وكنت أقيم قداساً أيام الآحاد لمساعديّ القلائل، ولمن يشاء أن يستمع. وكان الأمر الوحيد الذي يشير مخاوفي هو تأخرنا في بناء المستشفى لأنني كنت أعلم أن الشيخ مبارك قد بدأ يتململ من تأخرنا في تنفيذ وعدنا. وكان التأخر يرجع إلى عدة أسباب لا داعي لشرحها هنا.

وقد عدت إلى البحرين ثم سافرت إلى أمريكا في أول إجازة لي في ربيع عام 1912. وأثناء وجودي هناك، تم إرسال السيد والسيدة أي. اي. كالفرلي والدكتور بول هاريسون إلى الكويت.

وبدأ العمل في بناء المستشفى الجديد. وكان المستشفى أول مبنى من الحديد والإسمنت يقام في الكويت. وتولى المشروع مهندسان أمريكيان شابان من أفارير، ميتشيغان جاءا إلى البصرة بهدف المتاجرة.

وحال وصولهما إلى الكويت طلبا الإطلاع على نص عقد الشراء فوجدا أن قطعة الأرض يجب أن تكون مستطيلة، 300 × 270

قدماً. وبعد أن شاهدا الحدود التي أقامها رجال الشيخ أدركا أنه لا علاقة بين تلك الحدود وبين المقاييس المتفق عليها في العقد. وقاما بتحديد قطعة أرضنا بعناية وشيدا زاوية من الإسمنت في كل زاوية من زواياها. ولو أنهما أخبرا الشيخ مبارك بما سيفعلانه قبل أن يباشرا العمل لأمكن تجنب الكثير من المتاعب.

وحال عودتي من إجازتي توقفت في البحرين لجمع حاجاتي وأثاث منزلي ثم انتقلت إلى الكويت. وكان قد مضى أكثر من عام على وجود السيد والسيدة كالفرلي والدكتور هاريسون هناك، وكانت الإرسالية قد استقرت. وقد مارس السيد كالفرلي (الآن دكتور) دور القس والسيدة كالفرلي دور الطبيبة النسائية، والدكتور هاريسون جور الطبيب الرجالي وكانوا يعيشون في بيوت عربية في وسط المدينة. وكان هاريسون يسكن في المنزل الذي سكنته عام 1911، والذي أصبح فيما بعد مستشفى. وكانت السيدة كالفرلي (الدكتورة إليانور) تستعمل هذا المنزل للخدمات الطبية أيضاً. كما استأجر آل كالفرلي منزلاً سكنياً لهما على بعد ربع ميل – وكان منزلاً مريحاً جداً.

وقد حصلت أنا وزوجتي على بيت جديد بطريقة فريدة وقامت الإرسالية باستئجاره لمدة ثلاثين عاماً. كان صاحب البيت قبطاناً بحرياً عربياً ثرياً قتل فيه امرأة ودفنها في باحة المنزل. قد ألقي القبض على القبطان واعترف بالجريمة ونفي من الكويت. واستولى الشيخ على منزله. وهكذا أصبح الشيخ صاحب العقار الذي أسكنه.

وكان البيت فسيحاً وحسن البناء ولكن رفض أي عربي استئجاره فقد ارتكبت فيه جريمة. وكان منزلاً مدنساً، لا يتمكن المسلم المؤمن من الصلاة فيه. وحينما عرض عليّ استئجاره بسعر معقول رضيت بذلك، وعشنا فيه سنة. وبعد أن أخليناه في أكتوبر عام 1914، أصبح مدرسة السيد كالفري ومسكناً لأحد بائعينا المتجولين. وقد تم العفو عن صاحب المنزل منذ بضع سنين وأعيد إليه منزله. وقد حاولت عدة مرات أن أشتري هذا المنزل من الشيخ مبارك، ثم من الشيخ جابر ثم من الشيخ سالم ثم من الشيخ أحمد. لكن الشيخ رفضوا بيعه لي بحجة أن مالكه سيرجع يوماً ما. ولم أستطع أن اكتشف السر وراء هذا المنطق.

وهكذا نشأت صداقة بيننا وبين آل كالفرلي استمرت 15 عاماً كان عملنا خلالها مزدهراً وناجحاً.

وبعد أن عرفنا الناس حق المعرفة اختفى الفتور والعداء الذي كنا نقابل به لتحل محلهما الصداقة والثقة. وقد احتجنا إلى جهد ووقت لاكتساب هذه الصداقة والثقة.

وبعد وصولي إلى الكويت غادرها هاريسون إلى بلد آخر، ووقع عليّ عبء تنظيم مؤسسة طبية دائمة. وكان أول أمر يجب إنهاؤه هو بناء المستشفى. وقد شيد الإطار الفولاذي للبناء، ورفع سقفه وصبت أرضيته بالإسمنت. وتم صب مستوى الأرضية بشكل مغلوط مما استدعى إعادة صبها. وقد أبلغنا المهندسان المشار إليهما سابقاً

بأن مسؤوليتهما انتهت بانتهاء تشييد الأساسات والإطار الخارجي وأن علينا – نحن الهواة – كالفرلي وأنا أن نتم تشييد المبنى.

وقمت بتفحص الحدود الجديدة لقطعة أرضنا فوجدت أنها قد استبعدت ثلثي التلة خارجها. وأصبت بخيبة أمل لأنني كنت أنوي بناء منزل الطبيب فوقها. وكنت مستعداً نسبياً لتلقي هذه الصدمة لأن كالفرلي كان قد كتب لي قائلاً بأنه قد أعيد قياس قطعة الأرض، ولكن رؤية التغيير كانت قاسية عليّ كما لو أنني لم أتوقعه.

وقد سألت كالفرلي: «ألا تعتقد أن الشيخ مبارك يعطينا قطعة الأرض هذه؟ فهي لن تفيد أحداً، إذ لن يقوم أي عربي ببناء منزل قربنا».

وأجابني كالفرلي بأن التعامل مع مبارك قد أصبح صعباً لأنه يعتقد أننا خذلناه، وبالتالي فهو لن يقدم لنا أية خدمات. كان ذلك الجواب ضربة لي. ولكنني استجمعت شجاعتي وزرت الشيخ مبارك بعد ظهر اليوم نفسه. وكان الشيخ في مجلسه وقد بدا مكفهر الوجه ومتحفظاً، لكنه استقبلني بحفاوة كافية.

وبعد تناول القهوة والسجائر وتبادل حديث عام قصير سألته ببساطة: ألم تكن تفكر بإعطائنا التلة كلها من ضمن قطعة الأرض التي بعتنا إياها؟

وسألني باستغراب: «ماذا تعني؟».

عند ذلك أخبرته القصة، وشرحت له أن المهندسين اضطرا إلى إعادة قياس الملكية لكي تتفق مع المساحة المنصوص عليها في

عقد المبيع. وانفجر مبارك قائلاً: «ماذا؟ هل تقصد أنكم غيرتم حدودي – حدودي أنا. أسمع يا حكيم إن صبري قد نفد. لقد مضى أكثر من ثلاث سنوات على بيعي تلك الأرض لإرساليتكم. وقد وعدتم حينئذٍ ببناء مستشفى وإرسال طبيب. ولم يتم بناء المستشفى بعد والله وحده يعلم متى سيتم. أما الأطباء فيأتون ويذهبون، ولا أعلم كم ستمكث أنت، والآن تأتي لتخبرني بأن حدودي قد غيرت، إنني أفكر جدياً بإلغاء كل الامتيازات التي أعطيتها لكم وبإخراجكم من الكويت.

وأبلغني أن الجلسة قد انتهت. وشعر الحاضرون في المجلس، بمن فيهم الحرس، بتكهرب جو المجلس، فسارعت بمغادرة المكان.

يوجد عرف مهم في القانون السياسي العربي يقول «يجب ألا تغير موقع أو تزيل علامة حدود جارك. وملعون من يزيل حدود جاره». وكان هذا عرف له مكانته في الجزيرة العربية.

وكنت كئيباً حين وصلت إلى منزلي وأخبرت زوجتي بنتيجة المقابلة التي كنت أتوقع من ورائها الكثير. ولم يكن هناك في المدينة من ألجأ إليه طلباً للمساعدة، وكنت أذرع غرفتي جيئة وذهاباً في الليل أفكر في كيفية الخروج من هذا المأزق. وفعلت الأمر الوحيد الذي بإمكاني أن أفعله. فقد داومت على زيارة الشيخ بانتظام دون أن تكون لديّ الشجاعة على إعادة فتح الموضوع. وكان الوقت يمر وفصل البناء يقترب. وكان ميزانية بناء منزلٍ للطبيب متوافرة، وكنت تواقاً لبدء البناء. وكان من المستحيل، طبعاً، القيام بأية خطوة قبل إنهاء

المسألة مع الشيخ. ولم نجرؤ حتى على إتمام العمل بالمستشفى وظل العمل متوقفاً تماماً.

وأخيراً قررت أن أجابه الموضوع وقد سألت الشيخ مبارك أثناء إحدى زياراتي الدورية: «هل بإمكاني أن أكلمك في موضوع مهم جداً؟» وهز رأسه موافقاً، فتابعت: «إنك تدرك بلا شك يا صاحب السمو أن أهالي الكويت يعتبرون الإرسالية مذنبة لها أخذت أرضاً لا تخصها، وهذه تهمة خطرة. فإذا كانت التهمة صحيحة يجب معاقبة الإرسالية، وإذا لم تكن فعلى سموك أن تقول ذلك علناً. ولديّ اقتراح بأن تقوم سموك بزيارة قطعة أرضنا لكي يجري قياسها علناً وفي حضورك».

وابتسم مبارك – وكان قد مضى وقت طويل لم أره فيه مبتسماً – وقال إن الفكرة جيدة وإنه سيزورنا. وطلبت منه تحديد موعد فأعطاني موعداً بعد ظهر بضعة أيام. وتركت مجلسه وأنا أشعر بارتياح لم أعهده منذ أسابيع وسارعت لإخبار كالفرلي بالأمر.

وانتظرت أنا وكالفرلي طوال بعد ظهر اليوم المحدد لزيارة الشيخ مبارك لكنه لم يحضر. وعندما زرته وذكرته بوعده ابتسم وقال: «كلا لم أحضر». ووعدنا بالزيارة ثلاث مرات وخيب أملنا ثلاث مرات، وعندما وعدنا للمرة الرابعة سألته: هل ستأتي حقاً؟ فهذا رابع موعد تعطينا إياه، أجابني بحزم إنه سيحضر هذه المرة، وشعرت أننا سنراه عندنا فعلاً.

وقد شعرت أثناء هذه المفاوضات المزعجة بأن وجود المعتمد السياسي البريطاني سيكون مفيداً أثناء عملية قياس الأرض. فهو سيكون شاهداً محايداً ومقبولاً من جانب الشيخ مبارك ومني. واتصلت بالمعتمد السياسي، الذي كان مسيحياً رائعاً وصديقاً عظيماً للإرسالية وطلبت منه حضور «عملية التكييل» رسمياً وتسجيل النتيجة في ملفات مكتبه. وقبل الدعوة فوراً.

وفي اليوم الموعود، 9 فبراير عام 1914 أمطرت السماء فقلت لكالفرلي: «إنه يوم ممطر ولن يحضر الشيخ». ومع ذلك خرجت معه إلى قطعة الأرض وانتظرنا طويلاً. وما إن كدنا نفقد الأمل حتى ظهر موكب فخم. وكان يتقدم الموكب ثلاث عربات في الأولى الشيخ مبارك، وفي الثانية ابنه الأكبر الشيخ جابر، وفي الثالثة المعتمد السياسي البريطاني. وخلف العربات كان هناك عدد من شخصيات الكويت، على خيول مبارك، وخلفهم حشد من الفضوليين والأولاد.

ونزل مبارك من عربته بتمهل يتبعه ابنه والمعتمد السياسي البريطاني. وترجل المدعوون عن خيولهم، وصعدوا التلة سيراً على الأقدام حيث كنت وكالفرلي في استقبالهم وقد رد الشيخ تحياتنا لكنه بدا صارماً وعابساً. ولم يكن ذلك مشجعاً. واقترب رجلان من الشيخ وطلبا منه الموافقة على عصا القياس التي سيستعملانها. وكانت وحدة القياس الرسمية في هذه الأيام هي الذراع. والذراع تعادل 18 بوصة. وتم وضع عصا القياس باحترام على ذراع الشيخ فوافق عليها.

والذراع وحدة قياس قديمة جداً، وجاء ذكرها في كتاب ديتورومونى «ذراع الرجل» (ديتورموني 11:3).

وتم قياس قطعة الأرض وسط سكوت تام وتحت رذاذ المطر. وقد استغرق القياس أكثر من ربع ساعة. وكنت قريباً من مبارك لدرجة استطعت معها سماع النتيجة. كان طول القطعة 199 ذراعاً وعرضها 179 ذراعاً، أي ذراعاً واحدة أقل مما نص عليه العقد في كل جانب من المستطيل. وعندئذٍ حدث أمر مهم جداً، إذا استدار نحوي مبارك وهو يبتسم وقال لي: «إن المقياس صحيح».

وتمتمت كلاماً فحواه أنني كنت أحاول أن أقول له ذلك منذ أسابيع. وقال لي: «انتظر»، ثم أشار إلى الحاضرين بأنه سيخطب فيهم.

وكان فحوى ما قاله: يا رجال الكويت، لقد دعوتكم اليوم لمناسبة خاصة جداً. أنتم تعلمون أنني مرتبط بمعاهدة مع الحكومة البريطانية تمنعني من تأجير أو بيع أي جزء من أرضي لأجانب دون موافقتها، أنتم تعلمون أنني التزمت بهذا التعهد التزاماً تاماً ولم أعط جزءاً من أرضي لأجانب إلى أن قمت ببيع قطعة الأرض هذه للإرسالية الأمريكية، وبعد موافقة حكومة صاحب الجلالة، وكما يذكر العديد منكم أنه منذ وقت ليس ببعيد كان الألمان تواقين إلى الحصول على قطعة كبيرة غربي الكويت من أجل تدعيم خططهم الطموحة، ولم يحصلوا على بوصة واحدة. وأنا أسأل نفسي اليوم من هم هؤلاء الناس الذين بعتهم قطعة الأرض التي نقف عليها؟ هل هم سياسيون؟ كلا.

هل هم مؤسسة تجارية؟ كلا. لماذا حضروا إِلى هنا؟ لقد حضروا لتعليمنا، والله يعلم أننا بحاجة إلى تعليم. لقد حضروا لكي يبنوا مستشفى ويعتنوا بمرضانا، لقد حضروا لأداء خدمة لنا. والآن يريد الطبيب أن أعطيه شيئاً. وأنا لا أعلم ما الذي يريده، لكنني سأعطيه إياه مهما كان».

والتفت نحوي وسألني: ما الذي تريده يا دكتور؟ «وأجبته»: يا صاحب السمو أريدك أن تعطيني كل هذه التلة..

وقال: «حسناً، سيحضر رجالي إِلى هنا غداً صباحاً وعليك أن تخبرهم بالحدود التي تريدها».

ولن أنسى إِشراقة وجه كالفرلي وهو يقول لي: «يا ماليري، لقد أعطانا إِياها».

وحضر رجال الشيخ وقاموا برسم الحدود حسب تعليماتي.

وبعد أيام بدأت وكالفرلي ببناء منزل الطبيب الذي قدر لي ولزوجتي أن نسكنه سبعاً وعشرين سنة. وكان ذلك انتصاراً عظيماً لنا، وتغيرت مواقف شخصيات المدينة منا، فقد سارعوا إلى تبني موقف حاكمهم.

وأصبحت أنا ومبارك صديقين حميمين، وقام بإِعفائنا من كل الرسوم الجمركية، كبادرة من عدة مبادرات إِيجابية تجاهنا. وقد جرى اختبار الإِعفاء بعد إِعطائنا له ببضعة أسابيع. فقد وصلتنا شحنة كبيرة من أثاث ومعدات المستشفى – هدية من فرانك ر. تشامبرز

من نيويورك وهو الذي مول بناء المستشفى أيضاً. وبعد وصول الشحنة وصلني بيان جمركي من مدير الجمارك يطالب فيه برسوم جمركية وإيجار رصيف. وقد أخذت البيان إلى مبارك وذكرته بوعده، فأرسل لمدير الجمارك الذي وصل خلال دقائق. وكل ما قاله له كان: «يقول الدكتور إنك أرسلت له بياناً بالرسوم الجمركية. لا تفعل ذلك مرة ثانية إطلاقاً. يمكنك الإنصراف».

وكانت تلك آخر مرة أتلقى فيها بياناً بالرسوم الجمركية. وهذا امتياز ثمين حقاً، إذ وفر على الإرسالية مئات الدولارات خلال الخمسة والثلاثين عاماً الماضية.

وقد قضيت وكالفرلي صيف عام 1914 ونحن نبني منزل الطبيب ونكمل بناء المستشفى. وكانت لي خبرة محدودة في البناء اكتسبتها في البحرين، أما كالفرلي فكان جديداً على الصنعة رغم أنه تعلم الكثير من مراقبة المهندسين أثناء عملهما في بناء المستشفى وبشكل خاص، كيفية مزج إسمنت «بورتلند» كما أنه قرأ كثيراً حول القواعد والأعمدة وحول مشكلات البناء بشكل عام.

قبل أن أكمل هذه القصة الشائقة، أود أن أشير إلى أن المهندسين الشابين اللذين شيدا المستشفى لم يبقيا في البصرة بل عادا إلى أمريكا خائبي الرجاء بسبب قلة الطلبات التجارية. وكانت مدينة البصرة مدينة تركية متخلفة في طريقها للتهاوي[1]. ولو أدرك

---

(1) في الوقت الذي كانت فيه الكويت مدينة مزدهرة.

المهندسان أن بريطانيا ستحتل البصرة في الحرب العالمية الأولى ومكثا فيها لأمكنهما إقامة مشروع تجاري ممتاز بسهولة، لكنهما غادراها قبل الأوان بسنة.

وتخللت عمليات البناء إشكالات كثيرة. أولاً، كان البناؤون والعمال الذين استخدمناهم من العرب، وكانت لديهم أفكارهم الخاصة حول عملية البناء، ولم يكونوا بسبب نزعتهم الفردية قادرين على قبول أية أوامر أو تحمل أدنى توبيخ. وكانوا جاهلين تماماً لمعنى المستقيم والعمودي والأفقي وغيرها. ولا يعيرون اهتمامهم للدقة في التنفيذ. ونادراً ما كان المتجول في المدينة يرى أي باب أو نافذة مستطيلة بشكل صحيح أو مثبتة في الحائط بحسب الأبعاد الصحيحة. وبعبارة أخرى، كان العمل الذي قدمه لنا هؤلاء الرجال هو النوع الذي يتقبله كل سكان الكويت.

وكان إسمنت «بورتلند» مادة جديدة بالنسبة لهم ولم يتمكن معظمهم من تعلم طريقة استعماله بإتقان. ويمكن اليوم رؤية نتاج عملهم غير المتقن واللامبالي. ولو عرف هؤلاء البناؤون بكميات إسمنت بورتلند الهائلة التي ستستخدمها الكويت عام 1950 لربما بذلوا مجهوداً في تعلم كيفية استعماله.

وهكذا فإن الخلافات بيننا وبين البنائين كانت كثيرة. وكان استدال البنائين لا يفيد لأن البنائين الجدد كانوا من النوعية نفسها. ومما زاد الطين بلة كوننا مسيحيين. فقد رفض أي كويتي أن يعمل

عندنا[1]. وما زلت أذكر صباح أحد الأيام حيث وجدت في الورشة قطعة فولاذ مكتوباً عليها بالطبشور: «سوف يحترق الإنجليز كلهم. إن شاء الله، في نار جهنم». وكان هذا الترحيب مكتوباً بالعربية طبعاً. وكان عامة الناس لا يميزون، في ذلك الوقت، بين الإنجليز والأمريكيين[2].

وكانت المواد المستعملة في البناء من الفولاذ والحديد الممدد وإسمنت «بورتلند» باستثناء الأبواب والنوافذ التي كانت من خشب «التيك» المستورد من بومباي. وكان الجزء العلوي من النوافذ من الزجاج المصقول. ولا أذكر عدد ألواح الزجاج المثبتة في أبواب ونوافذ المستشفى، ولكنني أذكر أن المستشفى ظل يُعرف لسنوات باسم «البيت الزجاجي».

قمت وكالفرلي بتصميم منزل الطبيب، واتبعنا أساليب البناء المحلية نفسها في تشييده، باستثناء استعمال دعامات فولاذية – بدلاً من خشبية – لسقف الشرفة.

وقد أعطانا المعتمد السياسي البريطاني الكابتن شكسبير، والذي كان مهندساً هاوياً ممتازاً، اقتراحات قيمة عند وضع خطط البناء. وفي هذه المرحلة غادر شكسبير الكويت، وخلفه شخص أعلى رتبة منه بكثير وهو الكولونيل و.ج. غراي. وكان الكولونيل غراي حاضراً أثناء قياس قطعة أرضنا.

---

(1) من الواضح أن البنائين لم يكونوا عرباً فكيف يستقيم الحديث عن البنائين (العرب) ورفض أي كويتي العمل لدى البعثة التبشيرية!

(2) حتى لا يختلط الأمر على القارىء فإن الكاتب هو من أصل إنجليزي التحق بالبعثة التبشيرية الأمريكية.

وكانت المواد المحلية المستعملة في بناء المنزل مؤلفة من الحجارة المأخوذة من خليج الكويت أثناء الجزر، والطين أو الصلصال، وجص باريس الذي كان المادة المستعملة دائماً في طلب الجدران من الخارج والداخل. وكان جص باريس ممتازاً للدهان الداخلي ولكنه كان يتلاشى بسرعة، وكان المطر يزيله بسهولة. واليوم يزداد استعمال إِسمنت بورتلند في الدهان الخارجي، لأنه كما يقول العرب «لا يذوب».

وقد توقفنا في استخدام نجارين إيرانيين ماهرين من البحر قاما بصنع كل الأبواب والنوافذ من خشب «لتيك» الذي استوردناه من كراتشي.

يتضح مما ذكرنا أن مسألة البناء كانت بحاجة إلى إشراف دائم، وبما أنني كنت أسكن وكالفرلي على بعد ميل من المبنى، فإننا كنا نمشي مسافات طويلة لتأمين الإشراف المستمر. وكانت لدينا واجبات أخرى كالتطبيب، والتعليم والتبشير لا نترك لنا وقت فراغ. وهكذا اقتسمت وكالفرلي أوقات الإشراف وكان ذلك يعني المشي أميالاً – لأن وسائل النقل لم تكن متوافرة – باستثناء الحمير التي لم نعتد عليها.

وقد تجحنا في وقت لاحق في استخدام شاب عربي مسيحي من شمالي العراق للإشراف على العمل ولكن العمال رفضوا أوامره لأنه مسيحي. وذات يوم قمت وكالفرلي بمراقبته وهو يبذل جهده

لتوجيه طاقات العمال، وقال لي كالفرلي بطريقته البطيئة والمتعمدة: «أتساءل إذا كان ذلك الشاب يدرك عدم جدوى محاولته».

ووصلت إلى موقع العمل ذات صباح لأجد الشاب وسط زمرة هائجة. ولم أتمكن من رؤيته ، بل رأيت أعلى شمسيته التي كانت تلوح بضعف فوق رؤوس العمال. واندفعت وسط الزمرة حتى وصلت للشاب وسألته: «ماذا حدث؟» «وأجابني: لقد دعوني بالأجنبي فضربت أحدهم بشمسيتي فهجموا عليّ». وقد حذرته من تكرار تصرفه إذا كان يريد البقاء سالماً.

وفي الرابع من آب (أغسطس) 1914 انفجرت الحرب العالمية الأولى، وغادرت السيدة كالفرلي وطفلها الكويت إلى أمريكا في 7 أغسطس. وقد لحق كالفرلي في أول نوفمبر بزوجته وبقيت وحدي في الكويت. وكنت أنا وزوجتي والكولونيل غراي نشكل الجالية المتكلمة بالإنجليزية في الكويت، بالإضافة إلى طبيب الحجر الصحي ووكيل الشحن السكوتلندي.

وكانت خيبة أملي بسير عملية البناء تزداد يوماً بعد يوم. فالعمل كان يتم بطريقة لا مبالية وغير دقيقة ودون حماس الخ... حين جاءني ذات صباح رجل إيراني طويل يرتدي تنورة ذات ثنيات، وقبعة من اللباد، وقال لي إنه معلم بناء. وكان يصحبه شاب بعين واحدة عرفت أنه الغلام الذي يتلقى التدريب على يديه. ووقفت معهما نراقب العمال العرب فانتقدهم الإيراني بلهجة الواثق من النفس. وقد رجاني قائلاً:

«دعني أريك ما يمكن لي ولمساعدي وبضعة رجال أن نفعل». وفتح كيساً من الخيش وأخرج منه عدة متكاملة لم أر مثلها منذ زمنٍ بعيد، كالشاقول (ميزان البنائين) والكوس (زاوية النجار) والملج (أداة يطين بها)، والشاكوش والقدوم إلخ... فطلبت منه أن يعمل في بناء حائط، وأدركت أنه ومساعده رجلان لديهما معدات ويعرفان كيف يستعملانها وعقدت اتفاقاً فورياً معهما، ثم طردت كل عمالي العرب، وطلبت من الرجل جلب عمال إيرانيين مكانهم. وسار العمل بعد ذلك بسهولة، وسرعان ما انتهى بناء المنزل بشكل دقيق وجيد حقق أمنيتي.

وعندما انتقلت وزوجتي إلى منزلنا الجديد «فوق التلة» كان مكشوفاً لا يحيط به أي سور. فالإرسالية، لسبب غريب، لم تخصص أية ميزانية لبناء سور حول المنزل. وقد شعرنا بحرج ودهشة كبيرة عندما استيقظنا صبيحة أول ليلة قضيناها في المنزل لنجد وجوه البدو رجالاً ونساءً تطل علينا من كل نافذة. وقد صعدوا التلة ليتفرجوا على المنزل وما بداخله. وما لبث أن أحطت المنزل بأسلاك شائكة أرسلها لي أخي من إنجلترا، وكنا قبل وصول الأسلاك الشائكة عرضة للفضوليين. وبمرور الزمن تمكنت من تسييج جزء من المنزل بسور والجزء الآخر بأسلاك شائكة.

ومن متاعبنا الأخرى أننا وعدنا الشيخ ببناء سور بحري على طول قطعة أرضنا في الجانب المواجه للبحر. ولكن الإرسالية لم تخصص أي مبلغ لهذا السور. وقد عدت من إجازتي وأنا أتوقع أن

يكون العمل قد تم. وعندما عرضنا الوضع على المجلس في نيويورك أبدوا دهشتهم لقيامنا بتعهد مكلف من هذا النوع. فأخبرناهم أن هذا الشرط يسري على كل مبيعات الأرض الواقعة على البحر وأنه لم يجر فرض هذا الشرط على الإرسالية وحدها.

وأثناء تبادل المراسلات مع نيويورك كانت المسألة تزداد إلحاحاً. فكلما هبت ريح قوية من الشمال مع مد عالٍ جداً كانت أسسنا على الشاطىء تتداعى.

وكان واضحاً أنه ما لم يتم اتّخاذ إجراء فعّال، فإن مياه البحر ستهدم أسس مستشفانا، ولم تكن لدينا أموال في مركز الكويت، ولكن قسم البصرة الطبي هرع إلى مساعدتنا في بناء حائط متواضع لصدّ الأمواج. وقد هدم هذا الحائط عند هبوب أول عاصفة كبيرة، ولكن حجارته بقيت مكومة في مكانها وخففت من قوة الأمواج نوعاً ما. وما لبثنا أن تلقينا أموالاً كافية من نيويورك وبنينا السور البحري القائم حالياً[1].

(1) أصبح هذا السور اليوم (1997) يبعد عن الشاطىء كثيراً ويفصلهما طريق مزدوج حديث للسيارات.

سنوات الحرب

كانت الكويت عام 1914 معزولة عن العالم الخارجي تماماً. وقد وقعت الحرب بكل بطولاتها وبؤسها على رؤوسنا وجلسنا نرقب مقتل «أول مائة ألف جندي» فوق أرض فرنسا. وبدأ غزو العراق، وتحولت كل السفن التي كانت تنقل المسافرين والبريد والبضائع عبر الخليج «الفارسي» إلى نقل الجنود. وانقطعت السفن عن زيارة ميناء الكويت.

ولم تكن هناك أية طريق أو مواصلات سلكية ولاسلكية تربط الكويت بالبصرة، وكان هناك زورق خاص ينقل بريد الكولونيل غراي الحكومي، وبرقيات «رويتر» من «فاو» في أعلى شط العرب. وكان هذا الزورق يأتي بين الحين والآخر ويعيد صلتنا بالعالم. ومع استمرار الحرب تم تركيب لاسلكي ميداني ثم خط تلغرافي مع البصرة، ولكن العزلة التامة كانت نصيبنا في بداية الحرب.

وكنت كإنجليزي تواقاً إلى الانضمام للحرب بطريقةٍ ما، ولكن كان من الصعوبة بمكان أن أترك الكويت في ذلك الوقت. فقد كنت المبشر الوحيد هناك، وكانت تعهداتنا للشيخ مبارك تحتل مكان الصدارة. وقد طلب مني السير برسي كوكس الذي كان المفوض

السياسي الأول في العراق والخليج «الفارسي» أن أبقى في الكويت، مشيراً إلى أنني سأكون أكثر إفادة لبلادي في الكويت مني في أي مكان آخر في العالم. فقد كان هناك مقدار كبير من انتشار الشعور المعادي لبريطانيا في الكويت، وكان نفوذي وتأثيري سيساعد على تخفيضه وهكذا بقيت في الكويت.

وفي الواقع، تحملت عدداً من المسؤوليات أثناء الحرب فقد أصبحت مسؤولاً عن علاج جميع موظفي الحكومة البريطانية بمن فيهم موظفو المعتمدية والبريد والفرقة الخاصة بالحصار. كما أنه تم إقامة معسكر رملي ضم ضابطين بريطانيين، وأربعة رقباء وعرفاء، وعدة مئات من الحمالين، وكانت هذه مسؤولية كبيرة. كان الرمل ينقل إلى العراق حيث تقوم وزارة الحربية باستعماله في مختلف أعمال الإسمنت. وبعد أن أخذت السفن تأتي إلى الكويت في وقت لاحق من الحرب أصبحت ضابط الحجر الصحي، وبقيت كذلك إلى ما بعد نهاية الحرب.

وكنت طوال سنوات الحرب مشغولاً جداً إذ بدأت بالإضافة إلى مهامي الحكومية بتطوير مستشفانا الجديد الذي تم بناؤه في أكتوبر عام 1914 (تم بناء منزلي في الوقت نفسه تقريباً). وكان عليّ العناية بمدرسة كالفرلي لتمكينها من الاستمرار، وأخيراً كان هناك قداس الأحد بالعربية والذي كنت أقيمه في منزلي في المدينة. والذي أصبح الآن منزل بائعنا المتجول ومدير مدرستنا.

وكان القداس بسيطاً وموجهاً خصيصاً لعامة الناس إذ كان يتضمن عادة مقطعاً من الإنجيل، وصلاة، وترنيمة دينية أو اثنتين. وكان موقع المنزل مثالياً، إذ يقع في وسط المدينة على طريق رئيسي يؤدي من البحر إلى السوق. وكان القداس يعقد كل أحد دون انقطاع مدة ثلاثين سنة، أي إلى أن قامت الإرسالية بإخلاء البيت. وقد تعرف آلاف الكويتيين على التعاليم وأفعال السيد المسيح من خلال ذلك القداس[1].

وكان المشاغبون يبذلون كل جهدهم أحياناً لعرقلة عملنا التبشيري بإرسال الأولاد للصراخ أمام باب البيت أثناء القداس، أو بقذف المستمعين في الباحة بكتل من الوحل من خلف السور.

وفي إحدى المناسبات كنت أخطب في مئة وخمسين شخصاً تقريباً عندما دخل ثلاثة رجال حسني الهندام وجلسوا بقربي. وبينما كنت أتكلم أخذوا يقاطعون حديثي بالقهقهة والكلام بصوت مرتفع. وقد طلبت منهم عدة مرات التوقف عن مقاطعتي إلا أنهم لم يصغوا لي. وازداد ضجيجهم حين بدأت بإعطاء عظتي. توقفت عن الكلام وقلت لهم ما لم تسكتوا سأضطر لإخراجكم من المكان. وقد بدا تهديدي مسلياً كثيراً لهم إذ زاد استهزاءهم. وقفزت على زعيمهم وأمسكته برقبه ثم ألقيت به خارج المنزل. وقد فقد حطته[2] وحذاءه نتيجة للعراك، وعدت لأكمل خطبتي دون أية مشاكل أخرى.

---

(1) واضح مبالغة الكاتب هنا. فكم كان عدد الكويتين وقت ذاك حتى يكون عدد الذين تعرفوا على تعاليم وأفعال المسيح بالآلاف؟! إنها مبالغة تحسب لتعصب ديني واضح لدى الكاتب.

(2) لباس عربي للرأس.

وسألت نفسي وأنا عائد إلى بيتي: هل ما فعلته كان صواباً؟ وقد أكد لي كالفرلي أن تصرفي كان صحيحاً لأن هناك تقليداً في الإسلام يقضي بإلقاء المشاغبين خارجاً[1].

وأغلقت مستوصفي في المدينة في بداية نوفمبر عام 1914 وبدأت عملاً منتظماً في المستشفى. وكان المستشفى بعيداً عن البيوت والأماكن العامة مما جعلنا نفكر بإعادة فتح المستوصف. ولكننا صمدنا وبدأ الناس تدريجياً يعتادون للقدوم إلى المستشفى، وكان عددهم يزداد باستمرار وكان الرجال والنساء والأطفال يقصدوننا. وقد عملت في البداية مع زوجتي في المستشفى، وانضمت إلينا الدكتورة إليانور كالفرلي بعد عودتها من إجازتها في أمريكا.

وكان إدخال أول مريض للمستشفى حدثاً في حدّ ذاته فلم يكن في المستشفى أسرّة أو أي أثاث آخر. وكان عدد موظفينا صغيراً جداً لأن تدريب المساعدين يحتاج إلى وقت. وقد حضر أحد أفراد عائلة كبيرة لمقابلتي بعد ظهر أحد الأيام وقال إن صديقاً له أصيب بالرصاص وجرح في الصحراء وهو بحاجة إلى مداواة. وقلت له «أحضره، ولكن عليك أن تحضر له سريراً وطعاماً وماءً وخادمين للعناية به».

ووافق الرجل فوراً، ووصل الجريح بعد الظهر، ولكنهم لم يحضروا معه شيئاً مما طلبته، وقمت بإجراء الجراحة له وأنا واثق أن

(1) واضح الخلط بين التصرفات الإنسانية والإسلام.

الأشياء التي طلبتها ستصل حتماً. وحل المساء دون أن يصل شيء، وقام الرجل الذي رافقه إلى المستشفى بمغادرتنا.

وبعد نصف ساعة على غروب الشمس وصل الرجل الذي طلب إدخال الجريح أصلاً. وقد عنفته على عدم الوفاء بوعده فأخذ يشتمني ودعاني بالكافر وأهانني ثم قال لي إنني أتحمل مسؤولية تدبير الأمر كله. وقد غضبت فعلاً، وأمسكت بالرجل وهززته حتى اصطكت أسنانه وأخبرته أنني سأشكوه للشيخ[1].

وقد فوجىء الرجل بتصرفي كثيراً، وهرول خارجاً. وبعد أقل من نصف ساعة وصل موكب طويل يحمل كل الحاجات التي طلبتها. وأصبح الرجل صديقاً حميماً لي فيما بعد وقمت بإعطائه دروساً في الإنجليزية.

وقد أوقعتني حدة طباعي في المشاكل عدة مرات، ولكنها أفادتني أحياناً كما في الحادثة المذكورة. وحصلت حادثة أخرى في ربيع عام 1915. فقد استدعاني ذات صباح الرجل الذي أصبح فيما بعد شيخ الكويت. وكان أخوه الأصغر مريضاً. ذهبت إلى القصر ووجدت أن المريض مصاب بالتهاب رئوي حاد، فأعطيت تعليمات وأرسلت له الدواء.

---

(1) لا تخلو قصة الرجل (أحد أفراد عائلة كبيرة) من المبالغة. فقد وصف الكاتب في مكان سابق أفراد العائلات الكبيرة في الكويت بأنهم متحفظون ومتكبرون، ووصف أخلاقهم بأنها حميدة نظراً لتأديهم ولطفهم في التعامل مع أفراد الإرسالية، لم تجده يناقض كلامه هنا ويتهم الرجل بإنه شتمه ودعاه بالكافر لمجرد أنه ذكره بعدم وفائه بإحضار الأشياء المطلوبة لصديقه المريض. كما يبدو لنا عنصر المبالغة في إقدام الكاتب على الإمساك بخناق الرجل وهزّه حتى اصطكت أسنانه دون ردة فعل من الآخر.

وقمت بعد الظهر بزيارة المريض فوجدت أن تعليماتي لم تتبع إطلاقاً وأنه لم يعط الدواء. وتضايقت بالطبع، ثم خرجت وأنا أقول إنني لن أعود لمعاينته. وعندما وصلت المنزل أخبرت زوجتي بما حدث فقالت إنني تسرعت كثيراً، فأخذت أخلق المبررات لكنها كانت غير مقتنعة.

وأبصرت مساعد الشيخ أحمد يخرج من بوابة المستشفى ويتجه نحو منزلنا. وكان يحمل شيئاً فوق ذراعه. وقمت فوراً ودعوته لتناول الشاي معنا. دخل ووضع سجادة عجمية جميلة على الأرض وسلمني رسالة من الشيخ أحمد. وكانت الرسالة كالتالي: «عزيزي الدكتور لقد قضيت اليوم في الصحراء أتدرب على إطلاق النار. وعند عودتي للمنزل تكدرت عندما علمت أنك تركت منزلنا غاضباً لأن تعليماتك لم تنفذ. وقد غضبت وأمرت أيضاً بضرب الخدم. فإذا حضرت لزيارة أخي مرة ثانية تأكد أن كل أوامرك ستطاع. وكتعبير عن تقديري أرسل لك سجادة صغيرة».

وما زالت تلك السجادة إحدى أعز ممتلكاتي. وقد عدت للقصر، ويسرني القول إن الولد تعافى وما زال حياً. ولم يكن لدينا في تلك الأيام بنسلين أو أدوية سلفات. وكان العديد من مرضى الالتهاب الرئوي يموتون.

ولقد أزلت في هذه الأثناء تورماً من ذراع رجل أصبح معروفاً في

العالم العربي وهو الشيخ حافظ وهبة[1]، وهو الآن سفير الملك عبد العزيز بن سعود في البلاط الإنجليزي. وكان حافظاً في ذلك الوقت معلم مدرسة مكافحاً في الكويت.

وفي نوفمبر عام 1914 دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا. وقد كلفت تلك الخطوة تركيا الكثير، إذ فقدت بسببها العراق وفلسطين والحجاز في الجزيرة العربية. كما شهدت هذه السنون أيضاً نهاية النفوذ التركي في اليمن. وقد كانت الحرب مكلفة بالنسبة لبريطانيا أيضاً. فقد قتل الآلاف من البريطانيين قبل أن يتمكن الجنرال السير ستانلي مود من ترسيخ قدميه في بغداد. وما زالت المقابر التذكارية ومقابر الحرب في العراق أوضح شاهد على ذلك.

وقد لعب مستشفى لانسينغ التذكاري في البصرة دوراً كبيراً، منذ بداية القتال في العراق، في العناية بالجرحى الأتراك. وكان الطبيبان آرثر بينت وزوجته مسؤولين عن المستشفى، وقاما ببناء مستشفى ميدان فوق مجمع مستشفى الإرسالية الأمريكية في البصرة بمساعدة قائد الأركان البريطاني والتعاون معه..

وفي عام 1916 انتشر وباء التيفوس في مستشفانا. وقد أصيب به الدكتور بينت ورئيس الممرضين وأعضاء آخرون من طاقمنا الطبي، مما أدّى إلى وقوع عبء على السيدة بينت، والتي ما لبثت أن أصيبت

(1) حافظ وهبة أحد الرواد المصريين الأوائل الذين زاروا الخليج وعمل في البحرين ثم الكويت ثم التحق بخدمة الملك عبد العزيز بن سعود وأصبح سفيراً للمملكة في بريطانيا بعد ذلك.

بالتيفوس وتوفيت في 29 مارس 1916. وكان زوجها أثناء مرضها وعند موتها لايزال غائباً عن الوعي. فتلقى صدمة هذا النبأ الدكتور فان أس. ولقد كان موت السيدة بينت ضربة قاسية للجالية كلها أدت إلى إغلاق المركز الطبي للإرسالية في البصرة. وعلى الرغم من أن آرثر بينت تجاوز الصدمة إلا أنه انسحب من العمل الميداني وعاد ليستقر في أمريكا.

وقد نقل مستشفى لانسينغ التذكاري إلى العمارة في وقت لاحق. وقد رأت الإرسالية، بعد بناء مستشفى مود التذكاري الكبير في البصرة أن العمارة أحوج إلى خدماتنا الطبية من البصرة.

وكنت في هذه الأثناء أقيم في الكويت طبعاً، وقد استغربت أن يبرق لي من بومباي الدكتور وليام تشامبرلين سكرتير شؤون الإرسالية الخارجية في نيويورك بتاريخ 2 نيسان (أبريل) 1916 يخبرني بأنه سيصل إلى البصرة قريباً وأن عليّ أن اتخذ الترتيبات اللازمة لتمكينه من زيارة البحرين والكويت. كان ذلك خلال معرفتي النبأ الفاجع بموت السيدة بينت فوقعت في حيرة من أمري ولم أعرف ماذا أفعل. فلم تكن هنا سفن تزور الكويت. وقد خطر لي أن أطلب من الشيخ إعارتي أحد يختيه لكي أذهب إلى البصرة وأحضر الدكتور تشامبرلين. وكان الشيخ مبارك قد توفي منذ بضعة شهور. وقد تولى الحكم مكانه ابنه الكبير الشيخ جابر. ولم يمد لي

جابر يد المساعدة، وبدا نبأ موت السيدة بينت مسلياً بالنسبة له إذ قهقه «ملياً لفكرة موت طبيب»[1].

وبعد أن خذلني الشيخ توجهت إلى صديقي المعتمد السياسي البريطاني الكولونيل غراي وطلبت منه أن يضغط قليلاً على الشيخ لإعارتي يخته وفعل. فوجدت الزورق تحت تصرفي. ووصلت البصرة في الوقت المناسب لاستقبال الدكتور تشامبرلين على ظهر السفينة ونقلت تشامبرلين إلى يخت الشيخ، وأخبرني القبطان أثناء تناولنا الفطور أن ليس لديه فحم يكفيه للوصول إلى الكويت وأنه لم يجد فحماً في البصرة. وقد انزعجت لهذه الأخبار ونزلت إلى الشاطىء لأري ما يمكن عمله.

أخذت الدكتور تشامبرلين إلى مقر الإرسالية، وذهبت لأقابل السياسيين. وكان المسؤول السياسي الأول في «الخليج الفارسي» والبصرة هو السير برسي كوكس. وكان أعلى رتبة حتى من قادة القوات المقاتلة كافة. وكان الوضع في ذلك الوقت، أبريل 1916، يقلق المسؤولين البريطانيين كثيراً. فالحرب في العراق لم تسر سيراً حسناً والجنرال تاوسند كان محاصراً مع قوة كبيرة في كوت العمارة وقد فشلت كل الجهود لإمداد قواته الجائعة.

---

(1) من غير المعقول أن يكون نبأ وفاة طبيبة قدمت خدمات طبية جليلة لأهل الكويت، مسلياً لحاكم الكويت. وهل من المعقول أن يقهقه الشيخ لفكرة موت طبيبة، فتلك مبالغة أخرى من مبالغات الكاتب.

وهكذا كنت مضطرباً حين ذهبت للقيادة السياسية، ولكنني أطمأننت فوراً نتيجةً للترحيب الذي قابلني به الكابتن أرنولد ويلسون، الساعد الأيمن للسير برسي كوكس. وكانت تلك أول مرة أقابل فيها ولسون، وقد أعجبت فوراً بحيويته وطاقته وفهمه للأمور. وقد نشأت بيننا صداقة دامت حتى موت ولسون في أوائل الحرب العالمية الثانية.

كان ولسون من أفضل الأدمغة في العراق[1]، وقد نال عدة أوسمة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد تحدث معي بلطف وسألني ما إذا كان بإمكانه تقديم أية خدمة لي. فأخبرته بمشكلة الفحم، فرفع السماعة وأمر شخصاً بتزويد اليخت بعشرين طناً من الفحم. وكنت متأكداً أن أوامره ستنفذ بحذافيرها.

ثم سألني ولسون عن سبب زيارتي للبصرة فأخبرته، وعبرت له عن رغبة دكتور تشامبرلين بزيارة البحرين والكويت وتحدثنا حول أمور عامة، وأدهشتني مقدرة هذا الرجل المشغول تماماً على إشعار زائريه بأن لديه وقتاً كافياً لمقابلتهم. وأخيراً قال لي إن السير برسي كوكس يود رؤيتك ولكنه مشغول حالياً، فلماذا لا تبقى للغداء ويكون لدينا وقت كاف بعد ذلك.

وتناولت الغداء مع السير برسي كوكس والكابتن ولسون وآخرين، وأجلسني السير برسي كوكس عن يمينه زيادة في تكريمي. ثم أخذني

(1) الكابتن أرنولد ولسون اهتم بالخليج ووضع كتاباً مهماً عن تاريخه.

إلى مكتبه وراح يحدثني عن المشكلات العسكرية التي تواجهه. وتناول عدة خرائط عن مكتبه وأراني المصاعب التي تواجه الجيش في كوت العمارة وكيف يحاول تذليلها. وكان السير برسي كوكس مسؤولاً عن مجرى الأمور في العراق طوال تلك السنين الصعبة وأظهر عبقرية في كافة الظروف. كان طويل القامة ونحيفاً ووجهه يشبه وجه شيخ روماني. وكان أنفه الكبير علامة بارزة في وجهه، وكان يوحي له بأنه رجل لا يسهل خداعه ولا تفوته أية حادثة.

وما لبث برسي أن سألني عن سبب حضوري للبصرة فأخبرته القصة، وأضفت أن بإمكاني أخذ الزائر للكويت ولكن لا أستطيع ترتيب زيارته للبحرين، فنظر إليّ السير برسي لحظة ثم قال: «ألا تعتقد أن بإمكان البحرية المساعدة في هذا الأمر؟».

وتمتمت موافقاً بينما تناول قلماً وكتب بعض السطور على ورقة وقرأها: «إلى السيد دوغلاس سانت أوبين، عندنا في البصرة الدكتور وليام تشامبرلين، سكرتير الشؤون الخارجية في مجلس الإرسالية العربية في نيويورك، يرغب في زيارة الكويت والبحرين ونود مساعدته. ويرافقه الدكتور ماليري في الكويت. هل بإمكانك مساعدتنا؟».

وسألني إذا كان النص جيداً فأجبت بالإيجاب. وضغط على جرس فحضر رجل وناوله الرسالة طالباً إبراقها فوراً. والتفت إليّ قائلاً: «اذهب وروّح عن نفسك ساعتين ثم عد لأخذ جواب الرسالة».

وبعد عودتي بقليل وصل الجواب التالي: «إذا سافر الدكتور تشامبرلين والدكتور ماليري على سفينة البريد التي تغادر البصرة الليلة إلى بوشهر، فإن الباخرة كليو ستقابلهما صباح غد في بوشهر وتنقلهما إلى الكويت والبحرين».

وقد سارت الأمور بشكل حسن يصعب تصديقه. وساعدتنا البحرية بأكثر مما تعهدت. فقد غادرت والدكتور شامبرلين البصرة تلك الليلة وقبل أن ترسو سفينتنا في بوشهر قابلنا زورق من الباخرة كليو، ونقلنا إليها. وتناولنا الفطور مع قائدها ويدعى لويس الذي أخبرنا أن عليه زيارة ميناءين أو ثلاثة موانىء قبل الوصول إلى البحرين. وحال وصولنا للبحرين سيبقى فترة تمكن الدكتور تشامبرلين من القيام بجولته، ثم ينقلنا إلى الكويت حيث يبقى فترة مماثلة. وكانت لديه أوامر بإعادة الدكتور تشامبرلين من الكويت إلى البصرة. وهكذا حللت والدكتور تشامبرلين ضيوفاً على البحرية البريطانية لمدة عشرة أيام وتمكن تشامبرلين من إنجاز جولته.

وكانت تلك الرحلة لا تنسى بالنسبة للدكتور تشامبرلين خاصة وأن الكابتن لويس سهر على راحتنا. فقد أعطى غرفته للدكتور تشامبرلين، بينما نمت وإياه في حجرة الطعام وكان الكابتن لويس مشغولاً باستمرار في تلقي وإرسال البرقيات بحيث لا ينام إلا قليلاً.

ولم يفت الدكتور تشامبرلين شيء من الروتين اليومي في السفينة. وقد أعجب بشكل خاص «بالصلاة العامة» التي كان يقيمها

الكابتن لويس كل صباح على ظهر السفينة. ولم يكن تشامبرلين يعلم أن هذه الصلاة كانت واجباً يومياً في كل سفن الأسطول البريطاني. وكان تشامبرلين مدركاً للتكريم الذي أحاطته به الحكومة البريطانية والبحرية الملكية، وتأثر كثيراً بالخدمة التي أداها له السير برسي كوكس والبحرية في وقت حرج عندما كان في أمس الحاجة لها. وقد أرسل للكابتن لويس مجموعة قيمة من الكتب كتعبير عن شكره على الضيافة التي لقيها على متن الباخرة كليو.

ابن سعود والإخوان

قابلت عبد العزيز بن سعود المعظم لأول مرة في ربيع عام 1914. وكنت حسب ما أعلم، أول مبشر قابله حتى ذلك الحين. وكنت حتماً الأول بين زملائي في التعرف على الرجل العظيم. وسبق أن ذكرت أن ابن سعود مدين بكل شيء لمبارك الذي رعاه منذ عام 1885 حتى عام 1901 – أي خمسة عشر عاماً تقريباً. فقد استولت قبائل شمر من الشمال 1885 على الرياض، عاصمة العائلة السعودية، وهرب ابن سعود مع والده عبد الرحمن وعدد من الأتباع المخلصين إلى الكويت. وقام مبارك عام 1901 بتجهيز وإعداد ابن سعود لشنّ حملة مضادة مكنته من استعادة عاصمته. فتمت استعادة الرياض بالطريقة العربية التقليدية – شن غارة جريئة محكمة التخطيط ودقيقة التنفيذ. ومنذ ذلك الحين لم يتراجع ابن سعود خطوة إلى الخلف. فقد استولى عام 1912 على محافظة الأحساء من الأتراك وأصبح في السنة نفسها قوياً لدرجة لفت معها أنظار حكومة صاحب الجلالة.

وتم في ربيع عام 1914 عقد مؤتمر في الكويت ما بين مبارك، وحكومة صاحب الجلالة وممثلين عن الحكومة التركية وكان يختفي

خلف الاجتماع وجه ألمانيا المقنع. وقد أرادت تركيا إقامة قنصلية لها في الكويت، وكان سيتم بحث موضوع سكة حديد بغداد المعقد. ولم يكن مبارك أو ابن سعود يكنان أية محبة للأتراك. قدم ابن سعود من الأحساء على رأس قوة متوسطة الحجم وعسكر في الصحراء على بعد عشرين ميلاً غربي الكويت. (ولم يدخل الكويت ربما خوفاً من الغدر التركي). وقد أصيب العديد من رجال ابن سعود بالحمى فبعث إلى مبارك يطلب منه إرسالي لمعالجتهم.

فأرسلني مبارك في إحدى أفضل عرباته وجرى تغيير خيولها في منتصف الطريق. كان الطقس بارداً ولكن الشمس كانت مشرقة، ولن أنسى الرعشة التي سرت في جسدي وأنا أدخل معسكر ابن سعود. وكان المعسكر يتألف من صفين من الخيم البيضاء الكبيرة أوروبية الصنع. وفي نهاية الصفين كانت خيمة ابن سعود تقف بشكل أفقي يصل ما بين الصفين. وكان لها سرادق كبيرة. وقف ابن سعود عند بابه ينتظرني كي يرحب بي.

ونزلت من العربة ودخلنا خيمته معاً. ولم يكن فيها أحد، وكانت مفروشة بأثاث عربي فخم. كانت أرضها مغطاة بالسجاد، وكانت تتوزع على السجاد بقرب حائط الخيمة وبشكل متعامد مع الحائط سروج الجمال المغطاة بجلد الخرفان الأبيض الجميل. وهذه السروج تريح المتكىء عليها كثيراً أثناء جلوسه على الأرض. وكان عدد كبير من البنادق اللامعة والممتازة معلقاً على جدران

الخيمة. وكان كل ما في الخيمة يتميز بالترتيب والأناقة. وكانت الخيمة توحي بالأمان والثقة والقوة، تماماً مثل ما أوحى لي صاحبها وهو يصافحني.

وكان ابن سعود شخصية بارزة حقاً. كان طويل القامة – يزيد طوله على ست أقدام – وكان يرتدي ثوباً أبيض طويلاً وفوقه عباءة بنية مزركشة بخيوط ذهبية. وكان يضع على رأسه حطة ذات عقال مزدوج. وكان حافي القدمين إذ ترك حذاءه عند الباب. وكان يبدو في صحة جيدة وقدرت عمرة بخمس وثلاثين سنة. وكانت كل ملامحه – وجهه وجسده – تعبر عن الذكاء والنشاط والتصميم والقوة. وكان وجهه جميلاً ينسجم مع شهرته بالورع والتقوى. ولم يكن وجهه وجه إنسان متهتك، بل وجه رجل عرف كيف يهذب نفسه وعرف معنى الصوم والصلاة، وأخيراً، كان واضحاً أنه أرستقراطي.

ومن المرجح أن كل الأوروبيين والأمريكيين الذين تعرضوا لتأثير هذا العربي البارز سيصفونه بالصفات نفسها، كما أن تاريخه خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية يدل على صحة انطباعاتي الأولى عنه.

ولم نطل الحديث. فقد شربت فنجان قهوة، واستأذنت بالانصراف لمعاينة المرضى وقد تمكنت من رؤية المعسكر كله. فبالإضافة إلى الخيم البيضاء، كانت هناك خيام عربية – وخيام

سوداء مصنوعة من الصوف أو من شعر الماعز أو من كليهما[1] وكان معظم المرضى مصابين بالملاريا التي حملوها من الأحساء وقد عالجتهم بأقراص «الكونين».

وكان محاربو ابن سعود ينتمون للإخوة المشهورين المعروفين بالعربية باسم «الإخوان». ويشكل هؤلاء الرجال المعروفون أيضاً بـ«الوهابيين» أكثر فرق الإسلام تزمتاً وتمسكاً بنصوص الدين. وتستمد هذه الفرقة اسمها من رجل رأى في منتصف القرن الثامن عشر أن الإسلام قد تراخى، وأن المسلمين قد ابتعدوا عن أصول دينهم. وكان الرجل يدعى محمد بن عبد الوهاب. وقد دعا للحياة البسيطة، وإلى نبذ الرفاهية، والامتناع عن التدخين والمشروبات الروحية وعن التزين بالمجوهرات والحلي. كما دعا إلى مراعاة أوقات الصلاة وسائر الفروض الدينية مراعاة تامة.

وهناك حقيقة مهمة يجب تسجيلها وهي إن العربي لم يقاتل بضراوة عبر تاريخه، إلا عندما كان عامل الدين يدفعه للقتال. وكان تعصبهم الديني السبب في تمكنهم «خلال تسع سنوات من وفاة النبي من تدمير الإمبراطورية الفارسية التي كان عمرها ألفا ومائتي عام، ومن إخضاع الإمبراطورية الرومانية البيزنطية التي لا تقل قوة عن الإمبراطورية الفارسية ومن سلبها أغنى مقاطعاتها». هذا القول

---

(1) يشار إلى هذا النوع من الخيام محلياً باسم (بيت شعر).

مأخوذ عن غلوب باشا الذي لخص منجزات العرب خلال مائة عام في هذه السطور. وظل العرب مندفعين إلى أن أوقفهم تشارلز مارتل دي تور عام 722 ميلادية. وظلت الجيوش العربية، تحت الراية المحلاة بالعبارة الشهيرة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». منصورة لا يمكن مقاومتها مدة أجيال ثلاثة.

ومن المؤكد أن محمد بن عبد الوهاب قد استغرق يفكر في هذا الماضي طويلاً. وقد لقيت دعوته استجابة سريعة، وأصبح لديه جيش قوي. واستولى الوهابيون عام 1806 على مدينة مكة[1]، وبدا أنهم سيستولون خلال وقت قصير على كل المدن الرئيسية في الجزيرة العربية. ولكن الأتراك - الذين اتكلوا على القائد اللامع إبراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير حاكم مصر (الألباني) - تمكنوا من قهرهم وتدمير عاصمتهم عام 1818.

غير أن الحركة الوهابية لم تمت بل خمدت لبعض الوقت. وكانت تهب بين الحين والآخر لتأكيد وجودها. وحدثت آخر انتفاضة لها بعد أن ارتفع نجم ابن سعود. وهنا جاء دور ابن سعود ليستغرق في التفكير. فقد وجد المادة الصالحة لصنع أمضى سلاح. وكان قد استعاد عاصمته من قبائل الشمال، ولكن زعامة الرياض فقط ما كانت لترضي طموحه لأن الأتراك يحيطون به من الجانبين - من الخليج «الفارسي» ومن البحر الأحمر. وكانت مقاطعة الأحساء قريبة

(1) استيلاء الوهابيين على مكة كان في العام 1803 م، الموافق لسنة 1218 هـ وليس كما ذكر المؤلف سنة 1806.

منه وفيها حامية تركية رمزية. أما من ناحية البحر الأحمر، فإن كل حاكم عربي قوي تطلع إلى السيطرة على المدينتين المقدستين، مكة والمدينة المنورة. وإلى الشمال، كان أعداؤه التقليديون قبائل شمر يشكلون خطراً وتحدياً دائماً لا يمكن إزالته إلا بهزيمتهم وإخضاعهم.

ولكن لا يمكن تحقيق أي من هذه الطموحات بدون جيش قوي، ومن أين له أن يشكل ويمول جيشاً وهو فقير، وفي الوقت الذي لا تدين له قبائل الصحراء بالولاء؟ وكانت حركة الوهابيين هي الجواب، وسارع ابن سعود للإفادة من وضعها فمنحها تأييده التام. وعادت شعلة الإيمان تتأجج، وأصبح الإخوان أكثر حماساً. وكانوا يعتقدون أنهم المسلمون الحقيقيون وأن من ليس منهم فهو كافر. وأرسلت الكتب إلى القبائل تدعوها للانضمام للحركة وإلا فسيكون مصيرها الذبح. وبدأ الإخوان يقرأون أسماء الناس في المساجد، وكان يجري اعتقال المتغيبين عن الصلاة ومعاقبتهم. وقد قيل إنه جرى قتل بعض الناس رمياً بالرصاص لأنهم كانوا يدخنون. وأصبح التدخين أمراً معيباً. وانتصر التعصب الأعمى. وولد جيش المجاهدين الجدد الذي أمكن بوساطته إقامة المملكة العربية السعودية. وقد تحرك ابن سعود عام 1920 ضد مدينة حائل وهزم قبائل شمر هزيمة نهائية ملحقاً إياهم بسلالة الرشيد. وما زال أفراد عائلة الرشيد البارزين مسجونين في الرياض[1]. وانتصر الإخوان طوال عشرين عاماً حيثما قاتلوا وهكذا

(1) وقت كتابة المذكرات بالطبع.

أثبت جيش الجهاد العربي نفسه مرة أخرى كجيش لا يقهر. وتمكن ابن سعود من تحقيق طموحاته وأثبت للعالم قوته الخارقة كقائد ديني وعسكري وكرجل دولة. لقد ساعد الإخوان فمكنوه من صنع مكانته الكبيرة، ويرجع تقهقر حركة الإِخوان التدريجي إلى اعتقاد قادتهم أن بإِمكانهم القضاء على ملكهم ابن سعود وانتزاع ما حققوه له. ولكن تلك قصة أخرى.

ويجب التشديد على أن الملك لم يكن رجل ديناً وباحثاً عن الثروة استغل سذاجة رجاله لبناء قوته وإِقامة مملكته. فمن المؤكد أنه كان يؤمن بمثل الإِخوان الروحية إِيمان الخلفاء نفسه الأيام الأولى للفتح العربي. وقد تخلى عن الإِخوان لأنهم حاولوا تجريده من سلطته. فليس هناك أي ملك يتحمل العصيان.

وبعد أن عاينت كل المرضى في المعسكر، عدت لتقديم تقرير لابن سعود. وبعد أن بحثنا مختلف الحالات المرضية انتقلنا إِلى حديث عام ووصلنا إِلى مسألة حسنات كل من الطب القديم والحديث. وكان واضحاً أن ابن سعود قد قرأ كتاب ابن سينا، وأخذ يدافع عن الأفكار القديمة بشدة. وقلت له بتأديب إِنه لجأ إِلى خدماتي أنا بدلاً من أن يستعين بخدمات الحكماء العرب في الكويت. وقلت أثناء الحديث إن الجانب الروحي لعمل الطبيب أهم من الجانب المادي. فعلى الطبيب أن يحب مرضاه. ووافق ابن سعود على كلامي، وأضاف أن الطب يأتي في قمة الأمور الضرورية للإِنسانية.

وعندها قلت له «لماذا لا تدعنا نبني مستشفى في الرياض؟».

وأجاب: يا دكتور، دعني أروي لك قصة. كان الملاك جبريل يقف على أبواب الجنة حين وصل مؤمن وطلب السماح له بالدخول. وسأل جبريل الرجل بضعة أسئلة ثم قال له يمكنك الدخول، لكن عليك أولاً أن تضحي بخروف للتمثال الذهبي الكبير الذي تراه على أحد جانبي البوابة. وأجابه الرجل: «أستغفر الله، أنا لا أعبد الأصنام ولا أضحي لها». وقال جبريل: «حسناً، إذا كان الخروف كبيراً، فما رأيك بدجاجة؟». وأجاب الرجل: «أنا لا أضحي للأصنام». وسأله جبريل: «ولا حتى ذبابة؟ إذا قدمت ذبابة تكون قد أوفيت القانون حقه وتدخل». وصرخ الرجل: «كلا، كلا، كلا. لا إله إلا الله محمد رسول الله». وعندئذ سمع صوتاً بعيداً يقول: «أدخله إنه مؤمن حقاً». «وبعد وقت قصير حضر مؤمن آخر وخضع للامتحان نفسه ورفض تضحية خروف أو دجاجة ولكن عندما وصل إلى الذبابة هانته شجاعته. فقد خاف من أن يمنع من دخول الجنة وضحى بذبابة. وسمع الصوت البعيد مرة أخرى: خذه إلى جهنم فهو ليس مؤمناً».

وتابع ابن سعود كلامه قائلاً: هل ترى ما أعني. فنحن في وسط الجزيرة العربية لسنا من دين واحد فقط، وإنما نحن أعضاء في القرية الدينية نفسها. وأنا واثق أنني لو سمحت لكم بالإقامة في بلدي لأحضرتم رسالتكم وكتبكم وحاولتم نشرها. وسيبلبل ذلك أفكار قومي وستواجهني المشكلات. كلا. لن أضحي حتى بذبابة لأي دين

آخر. وعندما أحتاج إليكم أستدعيكم، ولكن لن أسمح لكم بالإقامة الدائمة في بلدي»[1].

واستأذنت بعد ذلك بقليل وانسحبت إلى خيمة أعدت خصيصاً لي. وما كدت أجلس حتى سمعت صوت رجل يفرك أصابعه محاولاً لفت انتباهي إليه فدعوته للدخول. وبعد حديث بسيط، سألته عما يريد ودهشت كثيراً حين سألني إذا كان بإمكانه تدخين سيجارة في خيمتي. وسمحت له بذلك، فأخرج علبه السجائر من طيات ثوبه. وما لبثت أن سمعت طرقعة الأصابع نفسها مرة ثانية وثالثة فسمحت لصاحبيها بالدخول. ووجدت نفسي في وضع خطر إذ سمحت لرجال مضيفي بخرق قانونه في خيمتي. وارتعبت خوفاً من وصول رائحة الدخان إلى خيمة ابن سعود. ولكن كلاً من هؤلاء اكتفى بتدخين سيجارة واحدة وانسحبوا ولم تصل الحادثة إلى ابن سعود. ولم يكن هؤلاء الرجال ليجرأون على تلك المخاطرة لولا بعد خيمتي عن خيمة زعيمهم، ولو لم يكن وقت راحة بعد الظهر حيث ينام الجميع. وبدا أنهم كانوا واثقين أنني لن أشي بهم. وأخيراً، كانوا في خيمتي وكانت لهم حقوق الضيافة العربية.

وكانت تلك الحادثة دليلاً على عدم موافقة كل أعضاء حركة الإخوان على تزمت الحركة وتشددها في ما يتعلق بالمسلك الشخصي.

---

(1) هذه أقصوصة يغلفها الشك وربما بعض خيال المؤلف.

وبعد أربع سنوات، عام 1918، كانت هناك تتمة لحديثي مع ابن سعود. فقد عرفت تلك السنة بسنة انتشار وباء الإنفلونزا الذي اجتاح العالم وقضى على خمسة وعشرين مليون إنسان كما يقال. ولم ينج القصر الملكي في الرياض من الوباء – ومن المثير للعجب كيفية تمكن الإنفلونزا من عبور الصحراء العربية مترامية الأطراف. وقد أصيب بالوباء كل من والدة ابن سعود وولده الأكبر، العزيز على قلبه، تركي. وقد توفيا عند وصول زميلي بول هاريسون قادماً من البحرين بعد أن استدعاه ابن سعود على عجل.

مكث بول هاريسون في الرياض ثلاثة أشهر عمل خلالها بجد وقام بعدة عمليات جراحية. وقد تساءلت كثيراً فيما إذا كان ابن سعود قد فكر في حديثه معي وبقصة جبريل. وقد قام بول هاريسون بعدة زيارات إلى الرياض ونجد بعد ذلك. كما قام كل أطبائنا في البحرين – ديم، ستورم، تومس، وأستير بارني أيمس – بالعمل في عدة مناطق من ولاية ابن سعود ووثق ابن سعود – الملك حالياً – بأستير وأولاها علاج نسائه طوال سنين. وهي لا تزال تسافر إلى الظهران والرياض وغيرهما لمعالجة النساء عندما يرسل لها الملك إحدى طائراته الخاصة.

وقد تمكن أخيراً أحد رجال الدين المسيحي من زيارة الداخل برفقة زوجته وابنه وأحد أطبائنا. وكان الرجل القس ج.و. فان بيرسوم من البحرين أول قسيس يدخل الرياض. ويبدو ليس أن الإرسالية العربية ستتمكن في المستقبل القريب من إقامة مستشفيات في عدة

نقاط استراتيجية في الداخل. ولكن الملك لم يتراجع حتى الآن عن الموقف الذي اتخذه في ربيع عام 1914، منذ ستة وثلاثين عاماً عندما قال إنه سيستدعينا عندما يحتاجنا ولكنه لن يسمح لنا أبداً بالإقامة الدائمة في دياره.

وقبل أن نترك موضوع ابن سعود مؤقتاً، أجد من المفيد تسجيل حادثة جرت عندما كنت مسؤولاً عن مستشفانا في البحرين. فقد عدت من الغداء في أحد أيام عام 1910 أو 1911 لأجد بطاقة مزينة بالذهب مكتوب عليها: «السيد طالب باشا متصرف الأحساء ونجد». وقد استدعيت الخادم الذي أفاد بأن الزائر الرفيع قد أبلغه بأنه سيمر بعد الظهر.

وحضر الزائر بعد الظهر، وقلت له أثناء شربنا الشاي لقد عرفت من بطاقتك أنك متصرف الأحساء ونجد – فهل تزمع الذهاب إلى نجد؟

وأجاب ضاحكاً: «كلا فإذا ذهبت سيقتلونني. وسيكون مقري في الأحساء، فتعييني متصرفاً على نجد جاء من قبل اسطمبول، وهو تعيين اسمي فقط».

ولست أذكر الآن ما إذا كان السيد طالب موجوداً في الأحساء عندما اجتاحها ابن سعود من الرياض وهزم حاميتها التركية بسهولة. وإذا لم يكن السيد طالب آخر متصرف للأحساء، فهو حتماً الحاكم قبل الأخير. وقد كان السيد طالب، ابن السيد رجب نقيب البصرة،

رجلاً قديراً وشخصاً بارزاً في العراق أثناء المفاوضات السياسية التي تلت الحرب العالمية الأولى. وكان يعرف ضعف القوات التركية في الأحساء حق المعرفة، ولم يكن بالتالي يعتزم المخاطرة بالاحتكاك بسكان نجد المتعصبين والأقوياء.

وذات مرة، ربما عام 1915، دخل مستشفانا في الكويت أحد الإخوان للمعالجة. وكان قد وقع عن جمله وكسرت ساقه. وأصبحنا صديقين، وبعد أن تماثل للشفاء دعاني لزيارة الصحراء. ولكنني قلت له: «إنك تكرهني. وإذا ذهبت معك إلى الصحراء ستقتلني».

وأجابني: «صحيح إنني أكرهك، ولكن كرهي لك كره ديني فقط، أما كرجل فأنا أحبك ولن أنسى ما فعلته لي».

هل كان قادراً على حمايتي؟ لا أدري. فلم أرافقه ولم أضع محبته موضع اختبار فعلي.

الإِخوان على أبواب الكويت

تميز عام 1920 بازدياد حدة التوتر ما بين الكويت والعربية السعودية. وقد بلغت سطوة جيش الملك ابن سعود، المؤلف من الإِخوان الوهابيين المتعصبين أوجها في هذا العام بعد هزيمة قبائل شمر في الشمال واحتلال عاصمتهم «حائل» إِذ أصبحت كل بلاد شمر، كما هي اليوم، جزءاً من إِمبراطورية ابن سعود. وأصبح الإِخوان في نظر الناس قوة لا تقهر.

ومن المؤكد أن ابن سعود كان يتطلع إِلى الكويت بشوف نظراً لمينائها العميق. وكان امتلاك هذا الميناء يعطي منفذاً هائلاً لأمبراطوريته الجديدة. وكان الشيخ مبارك العظيم - الوحيد القادر على التعامل مع ابن سعود وتجنب الحرب معه - يرقد في قبره منذ أربع سنوات.

وقد ازدادت تحرشات الإِخوان بالكويت خلال شهر مايو من ذلك العام، فكانوا يشنون هجمات مستمرة على الأراضي الكويتية فيفقدون بعض الرجال لكنهم يسببون للكويت الكثير من الخسائر في الجمال والخراف والماعز. وقد هزمت القوات الكويتية بقيادة دعيج

ابن سلمان في منتصف مايو هزيمة شنيعة على يد الإخوان. وأسر دعيج السلمان، بينما فقد هلال المطيري وهو أغنى تاجر في الكويت ألف جمل. وازداد الشعور بالعداء لابن سعود في الكويت. وقام الشيخ سالم حاكم الكويت الجديد، في 22 مايو بتدشين بدء العمل في بناء سور جديد للمدينة. وكان هذا ثالث سور للمدينة في تاريخ الكويت. أما السوران السابقان فقد تجاوزتهما المدينة المتسعة باستمرار منذ زمن بعيد. وكان السور الجديد يمتد في شكل نصف دائري خلف الكويت من البحر إلى البحر.

وكان بناء هذا السور آية في التنظيم. فقد فرضت الضريبة على سكان المدينة. وتم تعيين مسؤوليات محددة لرجال المدينة البارزين. وعين شخص مسؤولاً عن الحفر وآخر عن الصلصال وثالث عن المواصلات، وكان الصلصال المادة الرئيسية المستعملة في البناء وبما أن طول السور كان سيبلغ ثلاثة أميال وسمك جداره ست أقدام وارتفاعه عشرين قدماً، فإن كمية الصلصال المطلوبة كانت هائلة. وعين رجل آخر مسؤولاً عن توفير الجص والملاط بكميات كافية ورابع مسؤولاً عن إطعام آلاف العمال، وخامس عن حل مشكلة توفير مياه الشرب للعاملين.

واستمر العمل الجاد طول الصيف اللاهب، وتم بناء السور في سبتمبر أي خلال أربعة شهور، وكان إنجازاً رائعاً وامتد السور أكثر من ثلاثة أميال وعزل المدينة من ناحية البر. وقد جرى مد

طرفيه إلى داخل البحر، وإلى مدى أبعد من المياه الضحلة الراكدة لمنع العدو من تسلق السور أثناء الجزر. وكان للسور بوابات ثلاث، وبوابة رابعة خاصة بالأمير قرب قصر دسمان الخاص به. وكانت البوابات أشبه بالحصون المنيعة، وقد زود السور بأبراج لها فتحات تطلق منها النار كل ثلاثمائة ياردة. وكانت هناك على طول السور من الداخل عارضة خشبية يمكن للمسلحين الوقوف عليها وإطلاق النار على العدو من فتحات الجدار وهكذا كان السور آخر خط للدفاع وآخر إنجاز في فن الدفاع كما يفهمه العرب. وأصبحت الكويت مدينة مسورة.

ولم أتماك نفسي، وأنا أشاهد تحفة سالم، من استعادة كلمات الشيخ مبارك العظيم عندما سألته لماذا لم يبن سوراً حول الكويت وأجابني: «أنا سور».

في الجزء الثاني من كتاب صموئيل الباب الحادي عشر الفصل الأول، نجد الجملة التالية: «عندما يذهب الملوك إلى المعركة». وكنت وأنا طفل أسخر دائماً من ملاحظة المؤرخ القديم التي تشير إلى أنه لولا ظروف معينة خارجة عن إرادة الملوك لذهبوا إلى الحرب طوال السنة. وفي الجزيرة العربية، حيث تكون الصحراء في الصيف كالفرن المشتعل لا يمكن شن الحرب. فالجمال والرجال قادرة على بعض ذلك الحر، ولكن الخيول التي تحتاج إلى كميات وفيرة من المياه غير صالحة للحرب في الصيف.

وكان الصيف يقترب من نهايته، وأصبح معدل درجة الحرارة 98 درجة فهرنهايت. وكان أهالي الكويت يقولون طوال أسابيع: «حالما تخف الحرارة سيهاجمنا الإخوان». ولم تكن المدينة قد نسيت كارثة مايو، وكان الحقد على ابن سعود في أوجه. فقد هزمت الكويت مرة وكانت تخشى المواجهة الثانية.

وكانت تسود المدينة حالة توتر وقلق. وبدأت القوات بالتجمع في اليوم الثامن من أكتوبر ووصلت أنباء تقول إن قوات ابن سعود بقيادة فيصل الدويش تهدد الجهراء وهي قرية زراعية على بعد 18 ميلاً غربي الكويت. وكان الشيخ سالم وجيشه في الجهراء لأنها موقع أساسي لصدّ أي هجوم على مدينة الكويت.

كان السؤال المقلق الذي تردد على كل شفة هو: «ماذا نفعل إذا هزم رجالنا؟». جرى التشدد في التجنيد الإجباري. وتم تفتيش دقيق لكل بيت أدى إلى إلحاق بضع مئات من الرجال بالجيش. وتم أثناء الليل تدعيم سور الكويت. وكان المدافعون عند السور يشجون بعضهم بترديد أغنيات الحرب. وكان نومنا في الإرسالية أثناء الليل صعباً أننا كنا نبعد 350 ياردة عن الطرف الغربي للسور.

وفي العاشر من أكتوبر وقعت المعركة. فبينما كنت أتناول الشاي مع زوجتي على شرفة منزلنا في الصباح الباكر سمعنا صوت الرصاص من الجهراء. وامتلأ الجو بالشائعات المتناقضة. وأصابت الجميع حالة هياج. وهرع الجميع – الأغنياء والفقراء، الكبار

والصغار، الأحـرار والعبيد – إلـى البوابات والسور لأخـذ أماكنهم ومساندة المدافعين عنه. وأدرك الجميع أنه إذا انتصر العدو في الجهراء فسيهاجم الكويت دون إنـذار. ولم يكن هنـاك أي شخص دون سلاح، وكان الجميع تقريباً مسلحين ببنـادق من الطراز «ماوزر» و«مارتيني» وكانت الذخيرة متوافرة بكثرة. وكان بعض النـاس مسلحين بالسيوف والمسدسات بالإضافة إلى البنادق. ولم أتمكن من تمييز أصدقائي إذ كان الجميع يرتدون أثواباً قصيرة بيضـاء ومتمنطقين بالأسلحة، وعلى رأس كل منهم حطة بيضاء وعقال أسود.

زارنا عند الظهر المعتمد السياسي البريطاني الكولونيل ج.سي. مور، وأخبرنا أنه سمع بأنه الشيخ سالم محاضر في قلعة الجهراء وأنه معرض للخطر الشديد، وبعد حديث قصير أخذني بسيارته إلى بوابة السور الجديد الرئيسية، وكان الشيخ أحمد، ولي عهد الكويت، هناك وأكد لنا الأخير أن كل شيء على ما يرام وأنه لا داعي للقلق.

ولكن المشهد الذي واجهنا نفى تفاؤله. فقد كان اللاجئون من الجهراء ومن الصحراء يتدفقون على البوابة وعائلات بكاملها مع أمتعتها المنزلية وجمالها وحميرها وكلابها. وكانت هنـاك فتاة بدوية تحاول جاهدة إدخال جمل هائج عبر البوابة. ولم تتمكن من ذلك إلا بمساعدة سبعة رجال قاموا بضرب الجمل ودفعه بكل قوتهم داخل البوابة. وتكررت هذه الحادثة مراراً، فالجمل يكره البوابات، فكيف بالأبواب الصغيرة؟

وكان كل قادم جديد يلقى سيلاً من الأسئلة تطرح عليه من عدة رجال يصرخون بأعلى صوتهم في آنٍ واحد. ولم أتمكن من فهم الحوار. وكان الشيخ أحمد يوجه بعض الأسئلة. لكن الجميع كانوا يقاطعونه باستمرار بتدخلهم في الحديث.

وكانت حمير البدو السوداء الصغيرة تعبر البوابات وهي لا تكاد ترى من كثرة الحوائج المحملة عليها. وكانت الحمير تحمل بالإضافة إلى الحوائج المنزلية، الأطفال والمكفوفين والمسنين، وكانت الكلاب كثيرة ومشغولة بمساعدة أصحابها.

وما لبث أن وصل بعض الفرسان وتبين أنهم من خيالة الشيخ سالم، وقد تراجعوا لإنقاذ ما يمكن إنَقاذه. وكانت هزيمة وتفرق خيالة الشيخ سالم على يد فيصل الدويش هي الخطوة الأولى في معركة الجهراء، وقد حملت انطباعاً رئيسياً نتيجة لما شاهدته وهو أن المدينة في حالة رعب.

ووصل أوائل الجرحى في الساعة الثانية بعد الظهر، وكانوا جميعاً من الخيالة وبما أنهم سقطوا في بداية المعركة، فإن معلوماتهم لم تكن قيمة. ولكن مع غروب شمس ذلك اليوم اتضح أن الشيخ سالم محاصر مع قوته الرئيسية في قلعة الجهراء. وكانت لديه مؤن كثيرة ولكن الماء كان قليلاً ومالحاً، وبدا الوضع ميؤوساً منه.

وبينما كنت وزوجتي نهم بتناول العشاء بعد غروب الشمس

سمعنا صراخاً وعويلاً من الجانب الشرقي للمدينة. وكان صراخ النساء وبكاء الأولاد يصلنا بوضوح. وانطلقت الصيحة من كافة الأرجاء بأن الإخوان قد دخلوا المدينة.

وطلبت المعتمد السياسي بالهاتف لأن الضجة آتية من الجهة التي يقع فيها منزله، وسألته عمّا يجري. وأجابني بأنها حالة رعب فقط. قد وصل بعض الفارين من المعركة إلى إحدى البوابات وظن الحرس أنهم من الإخوان وتم توضيح الخطأ وخف الرعب. وهكذا مر يوم الأحد المليء بالأحداث.

وقد أرسلت تعزيزات في اليوم التالي 11 أكتوبر، مؤلفة من الحمالين الإيرانيين ومن المطلوبين للعدالة وشذاذ الآفاق من كافة الأوصاف إلى الجهراء بطريق البحر على متن أحد زوارق الشيخ. وقد أنقذت هذه الخطوة الوضع. فالعالم كله يعرف أن هناك مقداراً كبيراً من الحظ في الحرب، وقد كان التأثير المعنوي لوصول الزورق – رغم صغر حجم التعزيزات – كبيراً. وقد صادف وصول التعزيزات مع وصول ستمائة رجل شمري لا يكنون أي حب للشيخ سالم لكنهم يحملون الكثير من الكره للإخوان.

وكان الإخوان يشنون الهجوم ويندفعون اندفاعاً نحو الموت بشكل جعلهم لا يهتمون بتوفير الحماية لأنفسهم، الأمر الذي أدّى إلى وقوع إصابات جسيمة في صفوفهم. واغتنم الشيخ سالم الفرصة وخرج من القلعة وقام بهجوم مضاد على الإخوان تسانده فيه شمر

والتعزيزات التي وصلت من الكويت بطريق البحر. واستطاع هزيمة الإِخـوان خلال وقت قصير وجعلهم يطلبون السلام. وقد تم وضع ترتيب للسلام غادر بموجبه الإِخوان المكان وأخذوا جرحاهم معهم. وهكذا انتهت معركة الجهراء لصالح الكويتيين بعد أن كانت الهزيمة قاب قوسين أو أدنى.

وكانت معركة الجهراء إحـدى المعارك الدامية في تاريخ الجزيرة العربية، فقد دخل الإِخـوان المعركة بـ3500 محارب قتل منهم 800 محارب وجرح 800 آخـرون، أي نصف القوة المحاربة تقريباً.

وانتشرت في الكويت قصة موت جرحاهم بسهولة نظراً لعدم وجود أية خبرة أو مهارة طبية لديهم. وقام الإِخوان أثناء محاصرتهم للشيخ سالم في القلعة بنهب قرية الجهراء، واستولوا على كميات من المسك ووزعوها على رجالهم الذين قاموا بضمها إلـى الحاجيات الأخـرى التي سلبوها فأشبع الجو برائحتها الذكية والنفاذة وسرى اعتقاد في أوساط أهالي الكويت بأن الشذى والعبير يقتل المجروح. وكنت تشاهد الناس يومياً يتجولون في الشوارع وقد سدوا أنوفهم بالقطن والحلتيت[1]. حتى لا يستنشقوا أية رائحة ذكية أو عبير فقد استنشق جرحى الإِخـوان المسك، وبالتالي ساءت حالة جروحهم وماتوا. وكان ذلك الحادث بالنسبة للرجل العادي في الكويت مسألة

(1) الحلتيت: صمغ راتينجي يستخرج من جذور بعض النباتات.

سبب ونتيجة واضحة لا تقبل الجدل. وما زال هذا الاعتقاد قائماً في الكويت، ولكن انتشاره أصبح محدوداً. فالعلم يلعب دوره في محاربة هذه المعتقدات الغيبية[1].

وماذا عن الخسائر الكويتية؟ كان عدد الجيشين متساوياً، ولكن الكويتيين كانوا لا يجازفون بأنفسهم، بينما كان الإخوان يندفعون إلى العراء بغض النظر عن المخاطر، كان ذلك بطولة لكنه لم يكن حرباً. وقد قتل 63 كويتياً في المعركة فقط، توفي أربعة آخرون في مستشفى الإرسالية الأمريكية متأثرين بجراحهم، وكانت نسبة القتلى من الإخوان إلى الكويتيين 1:12، أما عدد الكويتيين فكان 120 جريحاً مقابل 800 جريح من الإخوان.

وكان بين الجرحى الكويتيين الأربعة الذين ماتوا متأثرين بجراحهم رجل مات متسمماً بالغاز، وكانت هذه الحالة الوحيدة للتسمم بالغاز التي شاهدتها في الجزيرة العربية. وقد دارت معركة الجهراء وسط حقول ذات سماد كثيف وفي حقول الحنطة. وقد نتج عن ذلك انتشار عدوى كبيرة. ولو كان لدينا بنسلين أو سلفات في تلك الأيام لتمكنا من إنقاذ كل جرحانا.

وقد وصل معظم الجرحى إلى الكويت يوم 11 أكتوبر ما عدا ذوي الحالات السيئة فقد وصلونا بالبحر يوم 12 أكتوبر. وكانت الجراح تتفاوت، بعضها طفيف وبعضها عميق. وكانت هناك بعض الإصابات

(1) ما زالت فكرة عدم الجمع بين الروائح والجروح منتشرة شعبياً.

بالسيوف والخناجر، ولكن معظم الإصابات كانت نتيجة لطلقات البنادق[1].

وأتى الدكتور ت.هـ. ماكنزي عضو مجلس إدارة الإرسالية يوم 12 أكتوبر من نيويورك لزيارتنا. وكنت في ذلك الوقت ضابط الحجر الصحي في ميناء الكويت وكان عليّ أن أتفقد جميع السفن القادمة للميناء. وقد وصلت إلى الرصيف الذي ينطلق منه قاربي فلم أجده، فعرجت على مقهى لأتناول فنجاناً من القهوة. وعند دخولي المقهى لاحظت أن وجهاء البلد موجودون هناك. وقد وقف الجميع لتحيتي قائلين: «أطال الله عمرك»، «وإن شاء الله تعيش ألف سنة» وهكذا. كنت متعباً ومتضايقاً لأنني كنت أعمل بلا انقطاع معظم الأربع والعشرين ساعة الماضية. وقد استأت من تصرف الشيخ بعد الحوادث. فهو لم يذهب إلى المستشفى، ولم يرسل رسالة شكر للجرحى أو للذين قدموا له المساعدة في المعركة.

وكان هناك الكثير من حديث الورع والتقوى دائراً في المقهى وعندما قال لي الشخص البارز إن الله سيكافئنا ثرت وقلت له:

(1) لعل القارىء لا يستغرب رواية المؤلف لموقعة الجهراء على هذا النحو من السرد التاريخي المختلف عما روته لنا كتب التاريخ، والمعروف أن هناك ثلاث روايات مختلفة لمعركة الجهراء التي دارت رحاها بين الشيخ سالم وبين جيش الإخوان أتباع ابن سعود وبقيادة زعيمهم فيصل الدويش. فالروايات الثلاث (الكويتية والسعودية والإنجليزية) تروي الواقعة من وجهة نظرها وحسب قناعتها وتفسيرها للأحداث وفقاً لما يخدم مصلحتها. وسيلاحظ القارىء المطلع على الروايات الثلاث كيف أنها اختلفت في سرد أحداث الموقعة أكثر مما اتفقت عليه. فقد اختلفت في تحديد الخاسر والرابح في هذه المعركة، كما اختلفت في تحديد عدد المقاتلين من الجانبين وعدد القتلى والجرحى أيضاً. كذلك اختلفت في تفاصيل المعركة، فهناك اختلاف واضح في مسألة التفاوض بين الجانبين وأي منهما الذي بادر بعرض الصلح والتفاوض، بل وفي بنود وشروط الصلح، وأخيراً كان هناك اختلاف حول مدى معرفة وعلم ابن سعود بأمر المعركة وموافقته على القتال بين قواته وبين أهل الكويت في الجهراء.

«هذا كله كلام جميل ولكن الكلام أرخص بضاعة في الدنيا. إنكم تلقون بعبء العمل كله عليّ ولكن لم يخطر على بال أحدكم أن يمد يد المساعدة مالياً أو بأية طريقة أخرى، ففي بلادي، يقوم الحكام أولاً بزيارة الجرحى ويبذلون ما في وسعهم لإنقاذ حياة هؤلاء الذين خاطروا بكل شيء في سبيل وطنهم ويسهرون على تأمين أفضل عناية ورعاية لهم. أما هنا فيقوم عبيد الشيخ بإلقاء الجرحى على شرفة المستشفى ويرحلون. وهذا كل ما تفعلونه. ولا يتعب أي منكم نفسه بالتفكير بقدرة مساعدي قليلي العدد على تحمل هذا العبء الإضافي».

ولاحظت فجأة أن بين الرجال البارزين الذين حدثتهم أحد الشيوخ الكبار من العائلة الحاكمة فدب الرعب في نفسي، وقد وقف هذا الشيخ ببطء رافعاً رأسه ولفه نفسه بعباءته ثم غادر المكان دون أن يقول كلمة أو ينظر إليّ نظرة واحدة. وقد تبعه بقية الوجهاء. وتركوا جميعهم المقهى بالطريقة نفسها. وبقيت وحدي مع صاحب المقهى. وأخيراً غادرت المقهى.

وصعدت إلى قاربي بتثاقل، فقد أدركت أنني ارتكبت خطأً مميتاً وأن طبعي الحادي أوقعني مرة أخرى في مأزق. وتساءلت عما سيحدث.

وجدت الدكتور ماكنزي على ظهر السفينة واصطحبته معي إلى الشاطىء. وأخبرته عمّا حدث في الأيام الأخيرة، ثم رويت له مأزقي

المالي. وأضفت أنه سيرى مستشفانا الصغير وسيوافق على ضرورة وجوده وأهمية الخدمات التي يقدمها.

وبينما كنت أتناول العشاء تلك الليلة مع زوجتي والدكتور ماكنزي حضر رجلان وطلبا مقابلتي. خرجت إلى الباب وأدركت فوراً أن الرجلين من بين الذين كانوا في المقهى في الصباح. وكان الرجلان لطيفين وقالا إنهما حاولا مقابلتي عدة مرات بعد الظهر. وأدخلتهما إلى حجرة مكتبي، حيث بدأ أحدهما الحديث بقوله: «كما تعلم يا دكتور كنا بين الحاضرين في المقهى هذا الصباح عندما كلمتنا حول عدم قيامنا بأي عمل. وكل كلمة قلتها صحيحة. وقد قمنا بزيارة معظم وجهاء المدينة. ونحن نؤكد لك أن المدينة تدعمك وأنها على استعداد لمساعدتك مالياً وبطرق أخرى. وقد انتدبنا لإبلاغك ذلك».

وعندما أتم كلامه وضع على مكتبي لائحة طويلة بأسماء وجهاء، وكان مدوناً مقابل كل توقيع مبلغاً من المال دفعه صاحب التوقيع أو تعهد بدفعه، وقبل أن ينصرف، أخرج من عباءته كيساً من الخيش وأعطاه لي قائلاً: «يوجد في هذا الكيس ألف روبية. وهذا مبلغ أولي كما أننا سنضيف بعض الأسماء إلى اللائحة التي رأيتها. تصبح على خير والله يوفقك».

وانحنيا[1] لي ثم انصرفا. وكدت لا أصدق ما جرى، وتنفست الصعداء مرة أخرى. وعدت إلى حجرة الطعام لأزف النبأ المثير لزوجتي وللدكتور ماكنزي.

---

(1) الانحناء ليس من عادة العرب ولا أعتقد أن وجهاء الكويت ينحنون للكاتب كما وصف.

وكنت في صباح اليوم التالي في غرفة العمليات عندما أبلغت بقدوم زائر. وكان الزائر زعيم إحدى أكبر العائلات في الكويت، وكان يرفض دائماً أن تكون له أية صلة بالإرسالية الأمريكية.. وكانت هذه أول مرة تطأ فيها قدمه مقر الإرسالية. وكنت لا أسمح عادة بدخول الزوار إلى غرفة العمليات ولكنني خالفت القاعدة هذه المرة.

وقف الرجل المسن يحدق بي لحظة ثم انهار، وقال وهو ينظر إلى الجريح الممدود على طاولة العمليات وباكياً: «يا دكتور لقد أدركت الآن أنه لولا هذا المستشفى لمات أبناؤنا وإخوتنا وأحفادنا لأنهم لن يلقوا أية عناية. وقد كنت عدوك حتى الآن، لكن إذا سمحت لي سأكون صديقك منذ اليوم».

ثم أخرج كيساً فيه خمسمائة روبية وضعه على الطاولة وخرج وهو في ضيق شديد. وكان حتماً متأثراً بما يجري في المستشفى إذ كان الجرحى يملأون المستشفى وكنا نعتني بهم.

وقد انتابني شعور كبير بالبهجة، لأن هذا الأرستقراطي المتكبر قد اعترف بنا أخيراً. وظللنا أصدقاء حتى مماته، بعد تلك الحادثة بسنوات.

ولكن تدفق وجهاء الكويت استمر طوال يومين وتجمع لديّ عشية السادس عشر من أكتوبر 6100 روبية – من بينها 600 روبية من أحد الشيوخ الكبار – بالإضافة إلى عدة مئات من أرطال الأرز، وعدد كبير من البطانيات، وكمية من الفحم تكفي مطبخ المستشفى عدة أسابيع.

كان ذلك نصراً عظيماً وأخذت أردد أغنية نصر شعبية لنفسي. ولكن بالطبع بقي بعض المشككين الذين قالوا: «لقد أعطوا، لكنهم أعطوا نزراً يسيراً». أما أنا شخصياً فكنت دائماً أشعر أن الكويتيين لا يدركون ما نفعله من أجلهم إلا عندما نبلغهم إياه تفصيلاً ويهبون حينئذٍ للمساعدة. وكما قال المثل: «أنّب رجلاً حكيماً وستجده يحبك».

وعادت المدينة تقلق من احتمال هجوم جديد يكون موجهاً هذه المرة نحو الكويت نفسها. ووصلها مندوب من العدو يوم 18 أكتوبر وسلم الشيخ سالم إنذراً. وقد اجتمع قادة المدينة بحضور الشيخ سالم، وكان الاجتماع طويلاً وعاصفاً واضطر الشيخ سالم رغماً عنه إلى تقديم طلب رسمي للحكومة البريطانية لمساعدته. وقد قدم الطلب فعلاً يوم 20 أكتوبر. وتم في اليوم نفسه رفض الإنذار.

ويمكن للمرء أن يتخيل ما كان سيحل بالكويت لو قرر الشيخ سالم أن يقف لوحده في مواجهة الإخوان. وكان الشعور العام السائد في أوساط الكويتيين هو أن الكويت غير قادرة على هزيمة الإخوان مرة ثانية. وبالطبع فإن وراء هذا الشعور أسباباً وجيهة.

وكانت في الكويت سفينة حربية بريطانية ووصلت إليها سفينة ثانية يوم 21 أكتوبر. كما وصلت طائرة يوم 21 أكتوبر وقامت بعد الظهر باستطلاع لتحديد مواقع العدو. وكنت أشرب الشاي مع المعتمد السياسي البريطاني حين دخل الطيار. وقد ذكر أنه لم ير شيئاً. وكان واضحاً لي أن العدو لن يكون إلا في مكانٍ واحد هو الصبيحية، وهي

مجموعة آبار على بعد ثلاثين ميلاً جنوبي الكويت، حيث تتوافر المياه والمرعى الحسن للجمال. كما يمكن هناك العناية بالجرحى مدة طويلة. وسألت الطيار عما شاهد في الصبيحية فقال بيوتاً وأشجار نخيل. وأخبرته أن الصبيحية ليست سوى آبار موحلة، ونصحته ضاحكاً بأن يأخذني معه في جولته القادمة.

وقد دهشت عندما طلب مني مرافقته في صباح اليوم التالي. ووجدنا الصبيحية بسهولة وكانت خيم الإخوان هناك.

وألقيت من الطائرة رسالة رسمية موجهة إلى قائد قوات الإحتلال فيصل الدويش. وقد ربطت الرسالة بأشرطة طويلة حمراء وبيضاء وزرقاء وقد تضمنته تهديداً لفيصل بالانسحاب من الأراضي الكويتية وإلا فإنه سيقصف ويجبر على الانسحاب. وكان لدينا في الطائرة بضع قنابل. وسأذكر دائماً كيف كتب لي الطيار ورقة عندما شاهد معسكر العدو جاء فيها: «يا إلهي ما هذا الهدف البسيط؟».

كانت الطائرة من طراز د.هـ.9 حيث للطيار غرفته الخاصة وحيث لا يمكن تبادل الحديث معه. وقد أحصينا الخيام وتفحصنا المكان من علو 1000 ـ 1500 قدم. وسررت عندما شاهدت رجلاً يلتقط الرسالة الحكومية التي ألقيتها. وأخذ الإخوان يطلقون الرصاص علينا من بنادقهم فاضطررنا للارتفاع في الجو. وقد خرج الرجال من خيامهم من كل الاتجاهات وهم يحملون البنادق. وعدنا إلى الكويت بعد أن قمنا باستطلاع ناجح.

وصلت يوم 22 أكتوبر سفينة حربية ثالثة وعلى متنها السير أرنولد ويلسون، الذي كان المفوض المدني بالوكالة على العراق. وكان ويلسون أحد الأدمغة البارزة في العراق في ذلك الحين. وقام فوراً بعقد مجلس حرب على ظهر السفينة. وقد حضر الاجتماع الضابط البحري المسؤول عن شعبة «الخليج الفارسي» وقادة السفن الحربية الموجودة في الميناء والمعتمد السياسي في الكويت، وقائد الطائرة وأنا. وتم وضع خطط تفصيلية غطت كل الاحتمالات بما فيها احتمال إجلاء الرعايا البريطانيين والأمريكيين عن المدينة. كما تم وضع خطط هجومية وأخرى دفاعية شملت المعدات والحاجات التي كان يجب إحضارها من البصرة. وقد عاد السير ويلسون إلى العراق بطريق الجو يوم 23 أكتوبر.

وكان كل شيء جاهزاً يوم 24 أكتوبر. وغادر مبعوثو الإخوان الكويت في اليوم نفسه، وهدأت المدينة. وقد انتقلت مسؤولية الموقف إلى البريطانيين وشعرت المدينة بالاطمئنان وحضر السير ويلسون مرة ثانية يوم 24 أكتوبر. وكان السور مليئاً بالمسلحين ونزلت وحدات بحرية من السفن الحربية البريطانية إلى الشاطىء ومعها مدافع رشاشة، وأنيطت بها حماية البوابات، وتم يوم 25 أكتوبر وضع رجال الإشارة البحرية فوق منزل طبيب الإرسالية، وكان عليهم تأمين الحراسة ليلاً ونهاراً. وكان سقف منزل الطبيب يطل على الميناء وعلى معظم السفن الحربية.

ووصل قائد السرب «برنت» من العراق مع طائرتين يوم 27 أكتوبر، وطلب مني أن أرافقه في رحلة استطلاعية.

وكان فيصل الدويش قد أرسل رسالة نارية يتبجح فيها رداً على رسالة الحكومة البريطانية التي ألقيتها فوق معسكره في الصبيحية.

حلقنا فوق موقع الصبيحية لنجد المكان مهجوراً باستثناء خيمتين أو ثلاث ربما تركت لإيواء الجرحى الذين لم يتمكنوا من الانتقال، وربما كان فيصل الدويش يفكك معسكره ليفر باتجاه الجنوب في الوقت نفسه، الذي أملى فيه رسالته تلك. وحلقنا مسافة سبعين ميلاً بعد الصبيحية فلم تجد أي أثر للإخوان. إذ يبدو أنهم رحلوا بسرعة كبيرة.

وما لبث قائد الجناح «برنت» أن أصبح ماريشال جو وعين قائداً لسلاح الجو الاسترالي وأصبح مقر قيادته في أستراليا.

وسرت شائعات يوم 30 أكتوبر بأن الإخوان في الوفرة، لكن الاستطلاع الجوي لم يرهم ولم يهاجموا الكويت مرة ثانية في تلك الفترة. وغادرت آخر سفينة حربية ميناء الكويت في 6 نوفمبر، وهكذا نجت الكويت مؤقتاً من الطموحات التوسعية لابن سعود وجيشه المؤلف من المتعصبين.

وليست هذه القصة سوى جزء عام ويسير مما حصل في الكويت خلال شهر بالغ الحرج ولكنها تعطينا مثلاً على قيمة الإرسالية الأمريكية في الكويت وكل العاملين فيها. وكان ذلك الشهر بالنسبة للإرسالية الأمريكية بداية عهد جديد.

التخلف والتقدم في الكويت العادات والأخلاق العربية

النظرة للحياة

شهد يوم 15 أبريل (نيسان) عام 1912 إحدى أسوأ الكوارث في حوليات البحر. فقد كانت الباخرة الجديدة «تايتانيك» والمُلحقة بخط النجمة البيضاء، والتي تزن 53210 أطنان وطولها 852.5 قدماً وقوة محركاً 50000 حصان، تقوم برحلتها الأولى عبر الأطلنطي عندما اصطدمت بجبل من الجليد وغرقت في أقل من ثلاث ساعات. وكان على متنها 2201 شخصاً غرق منهم 1290 ونجا الباقون.

ومن بين قصص البطولة العديدة التي ظهرت في الصحف عن الحادثة رسخت واحدة في ذهني. ولا أستطيع أن أجزم بصحة القصة، ولكن الموقف الأخلاقي الذي وراءها أهم ما فيها.

تحكي القصة أن مليونيراً كان يقف على ظهر السفينة وهي تغرق منتظراً نهايته عندما شاهد امرأة بين المسافرين لا ترتدي

حزام نجاة. ونزع المليونير الحزام الذي كان يرتديه وأعطاه للمرأة. ولم يكن لديه وقت للبحث عن حزام آخر لأن السفينة غرقت. وغرق المليونير بينما نجت المرأة.

بعد ذلك بشهر، كنت أبحر في قاربي باتجاه قارب البريد الذي وصل الكويت لتوه. وكان معي في القارب عدد من العرب، كنت أعرف معظمهم. ودار الحديث حول تحطم الباخرة «تايتانيك» فأخبرتهم القصة المذكورة أعلاه. وقد أثارت القصة الكثير من الاهتمام والتعليق. وقد قال لي رجل أعرفه معرفة جيدة: «يا دكتور لو كنت مكان المليونير هل تفعل ما فعل؟».

وأجبته: «أرجو ذلك، ولكن الأمر يتطلب الكثير من الشجاعة». فقال لي: «أنا لن أفعل ما فعله». ثم سألني: «لنفترض أن المرأة كانت زوجتك، هل تعطيها حزام نجاتك؟».

وأجبته: «نحن الغربيين نعتبر سؤاليك إِهانة. فبالنسبة لنا تأتي المرأة دائماً قبل الرجل، والضعيف قبل القوي. وأنا لا أتصور غربياً يترك زوجته تموت أمام عينيه دون أن يحاول عمل شيء ما».

وتابع الرجل: «يا دكتور، دعني أسألك سؤالاً آخر. لو تناولت السم أنت وزوجتك وكان لديك جرعة مضادة تكفي لشخص واحد، فهل تتناولها أنت أم تعطيها لزوجتك؟».

وقلت له: «إِن الجواب على سؤالك الأخير هو الجواب نفسه على اسئلتك السابقة. فالتضحية بالنفس هي جوهر ديننا المسيحي».

وانفجر قائلاً: «أنا أعرف ما الذي ستقوله. إنك ستقول إن المسيح قد ضحى بحياته لإنقاذ الناس من الجحيم وإنه علم الناس كيف يكونون مثله. حسناً، نحن لسنا كذلك فأنا سأتناول الجرعة بنفسي».

وأنا أعتقد أن الرجل كان صادقاً تماماً في كلامه وإنه حتماً سيضع نفسه أولاً. وأنا أعتقد كذلك أن موقفه من التضحية بالذات كان موقفاً عاماً بين الكويتيين في تلك الأيام.

وقد مضى أربعون عاماً على هذه المحاورة، وأنا أشك بوجود العديد من الرجال في الكويت الذين يتكلمون بتلك الطريقة الغليظة. وأنا مؤمن أن المستوى الأخلاقي قد ارتفع وأن أهالي الكويت أصبحوا يتفهمون قول الرب: «لا يملك أي إنسان حباً أكثر من هذا، أن يقدم الرجل روحه من أجل أصدقائه». وحتى صديقي المشكك في طيبة الدوافع البشرية والذي لا يزال حياً حسب علمي، أصبح أقل تشكيكاً بعد أن كبر في السن ولا أعتقد أنه سيتكلم اليوم بالطريقة نفسها التي تكلم بها عام 1912.

وحدثت كارثة بحرية ثانية بعد عامين، أي في أبريل عام 1914، في الكويت وقد أعلن الحجر الصحي على كل السفن القادمة إلى الكويت. ونظراً لعدم وجود محطة ملائمة للحجر الصحي في ذلك الوقت، طلب من السفن القادمة الرسو خارج الأرصفة وكانت السفن ترسو عادة خارج الميناء حتى تتم أيام الحجر الصحي المفروض عليها.

ووصل إلى الميناء يوم 14 أبريل مركب عليه ثمانية مسافرين يهود منهم خمس نساء ورسا المركب خارج الأرصفة. وقد هبت أثناء الليل عاصفة شديدة صحبتها ريح عالية وانقلب المركب وسقط المسافرون الثمانية في البحر. وقد غرق اليهود الثمانية بينما استطاع البحارة إنقاذ أنفسهم والسباحة إلى رصيف الميناء.

وأرسل الشيخ من يدعوني لمقابلته وطلب مني أن أفحص جثث الغرقى التي تم انتشالها من البحر. وأثناء تقديم تقريري للشيخ أخبره أن الملاحين لم يحاولوا إنقاذ أي من المسافرين ولم يعلق الشيخ على قولي. وعلينا أن نتذكر أن الليل كان حالكاً والبحر عالياً. وأنه من الصعوبة بمكان إنقاذ أي من المسافرين المرعوبين. ولكن المركب، من ناحية ثانية، كان قريباً من الرصيف وكان هناك العديد من الناس، معظمهم من البحارة، وقفوا يتفرجون على الكارثة ولم نسمع بأية أعمال بطولية، ولم تجر أية محاولة، حسب معرفتي، لإنقاذ الضحايا. وقد ترجع لا مبالاة الكويتيين غير العادية إلى كون الضحايا من اليهود، رغم أنني أشك بأن أياً من الكويتيين قد علم بأن المسافرين يهود قبل وصول ملاحي المركب إلى الميناء ورواية ما حدث.

معاملة الحيوانات:

لا يلقى الحيوان في الجزيرة العربية، بشكل عام، أية عناية أو تقدير إلا إذا كان له بالطبع فائدة آنية فيقوم صاحبه بإطعامه والعناية

به إلى حدٍّ ما. ورغم كل ما كتب عن حب العرب للخيول تبقى حقيقة معاملة العرب السيئة للخيول بحيث نجدها تعاني ألماً في الظهر وكسوراً في الركب ومعداتها دائماً خاوية. وحتى الخيول الأصيلة تبقى مهملة، واسطبلات بعض الشيوخ العرب مدعاة للخجل.

فالبرادع تبقى على ظهور الخيل أياماً وهي متسخة ولا يجري أي تفقد منتظم للخيول، وغالباً ما تكون حوافرها بالية.

أما الجمل فوضعه أفضل، ربما لأنه عندما يقرر ألا يشتغل أكثر يبرك على الأرض ويموت. ويوقد العرب ناراً أو يضعون قطعة حديدية حامية على ذنب الجمل المريض. ولكنهم يفشلون في دفعه للوقوف على قدميه.

وينشأ الأطفال العرب في جو من القسوة، ويسمح لهم بالتصرف على هواهم لأن الكبار، بكل بساطة، لا يعرفون معنى القسوة. ويقوم العرب في الربيع باصطياد العصافير بالشباك الكبيرة أثناء هجرتها السنوية ويأكلونها بشهية. ولكن الأطفال الكويتيين يستعملون هذه العصافير كألعاب. ويمكن شراء أجمل عصفور في أوج الموسم بسنت أمريكي واحد. ويجري ربط إحدى رجلي العصفور كليهما، ثم تقص أجنحته بمهارة لمنعه من الطيران بعيداً. وإذا كان العصفور من النوع المقاتل يجري إدخال ريشة صغيرة في منقاره عند الأنف لمنعه من النقر. وبعد ذلك تبدأ الساعات الأخيرة المحزنة للعصفور، إذ يلوح به في الهواء للتسلية واللهو.

ولكل بيت عربي حصته من القطط - الجائعة والجربانة والكئيبة وذات العين الشريرة - ولا يطعم هذه القطط أحد، ولذلك فهي دائماً تتحين الفرصة للسرقة وعندما تسرق يقومون بضربها. أما كيفية يمكن القطط الصغيرة من البقاء على قيد الحياة فهي مشكلة في حدّ ذاتها إذ يقوم الأولاد بالإمساك بها ويربطون خيطاً محكماً حول عنقها ويلوحون بها في الهواء أو يجرونها على الأرض حتى تموت. ولن أشاهد طوال السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية أي ولد عربي يعامل قطاً برفق. ومن المستحيل إقناع العربي بأنه لو أطعم القط بانتظام على الأقل لأصبح لديه حيوان يحبه الغربيون ويعجبون به.

أما الكلب فيلقى أسوأ المعاملة وأقساها. وهناك رياضة شائعة بين الأولاد في الكويت وهي إطلاق عدد من الكلاب على كلب مريض أو جريح ويحيط الأولاد بالكلاب وهم يصرخون ويحثونها على مهاجمة الكلب الضعيف، ولا يتركونها حتى تقطعه إرباً. أما أقسى ما يفعله الأولاد للكلاب فهو مزجهم قطعاً من الزجاج بالأرز وإطعامه للكلاب، ثم التسلي عليها تموت ببطء، أو على الأقل السرور بمعرفة أنها ستموت ببطء وألم فيما بعد.

والعربي صياد ماهر لكنه ليس رياضياً. ومع استخدام السيارة اتخذ صيد الغزلان طابعاً منفراً بالنسبة لمحبي هذه الرياضة وصيد الحيوانات. فقبل استخدام السيارة، أي منذ بضع سنوات، كان صيد الغزلان يتطلب المهارة والصبر والتحمل، وكان الصياد يصطاد كل

غزال على حدة، أما الآن فإن الصياد يقود سيارة «الفورد» ويدهس بها الغزال. وما حظ الغزال في الإفلات من سيارة لها محرك قوته 25 حصاناً في الصحراء الجرداء؟ وهكذا ترجع سيارات «الفورد» من الصيد ملطخة بالدماء ومحملة بالغزلان. وقد أحضرت إحدى السيارات أربعين غزالاً ذات مرة، ونحن نفعل ما في وسعنا لإثارة الرأي العام ضدّ هذه الأمور، ولكن يبدو أن المذبحة ستستمر إلى أن تختفي الغزلان من الوجود.

سرقة وإرجاع المسروق

يوم 22 يناير عام 1915 قامت أربع نساء من عائلة كويتية كبيرة بزيارة زوجتي. وكان منزلنا الجديد لا يزال يثير الفضول لأننا انتقلنا إليه في أكتوبر عام 1914 فقط. وكان أصدقاؤنا يبدون اهتمامهم بترتيب الحجرات وبأثاثنا وبزخرفة البيت. ولم تكن معظم نساء الكويت قد دخلن بيتاً أوروبياً وكن كلهن متشوقات لمشاهدة بيت سعيدة الجديد (سعيدة الاسم العربي لزوجتي) والمختلف عن كل ما عرفته.

كان بيتنا يتألف من ست غرف، وقد صممت كل غرفة لاستعمال معين. فكانت هناك غرفة نوم فيها سريران متشابهان ومرتبان بعناية. وغرفة الملابس وفيها دولابان واحد للزوجة وواحد للزوج. وحجرة الجلوس وفيها البيانو ورفوف الكتب والكنبات. وهناك حجرة

الطعام وفيها الأطباق النظيفة اللماعة والمرتبة على رفوق في خزانة حائط. وكان أحد الرفوف مليئاً بالسكاكين والشوك والملاعق المرتبة في مجموعات والموضوعة في أدراج مختلفة. وهناك الغرفة الخاصة باستقبال ضيوف زوجتي. وأخيراً كان مكتبي حيث أطالع واكتب وأستقبل ضيوفي. وعلى جدران كل غرفة صور معلقة. كما كانت لدينا مدافىء لم تر الكويت مثلها من قبل وكان الكويتيون يستغربون كيف يخرج الدخان من المدخنة دون أن يوسخ الجدران والسقف.

كان ترتيب البيت ونظافته مصدر وحي لصديقات زوجتي فهن لم يرين مثله من قبل لأن بيوت الكويت عام 1915 كانت تتسم بالفوضى وعدم الترتيب. وكنت أتساءل كيف يعرف الكويتيون أين وضعوا أغراضهم!، فقد كانت الأوساخ والغبار في كل مكان، ولايزال البيت المتوسط في الكويت في حالة فوضى. ولا أتمالك أن أسأل نفسي كيف يتحملون الفوضى وعدم الترتيب. وكانوا يوجزون الحالة بجملة واحدة: «حسناً إنكم تختلفون عنا، ولا يمكننا مجاراتكم في ما تفعلون».

وقد أعجبت الزائرات الأربع بالبيت وقضين ساعتين تقريباً وهن يتفحصن كل شيء. وبعد ذهابهن بوقت قصير أفادنا الخادم بأن سكينة فضية للفاكهة قد فقدت. وطلبت منه زوجتي أن يعيد البحث عنها بدقة ففعل ولم يجدها. وكانت بصحبة الزائرات عبدتان فوقع شكنا عليهما. ولم نشك أبداً بأي من الزائرات.

وما لبث أن ذاع الخبر بين سيدات المدينة بأن زائراتنا قد سرقن

سكينة فضية، والقيل والقال موضوع مفضل في الجزيرة العربية مثله في أي مكان آخر. وكانت التخمينات والشائعات كثيرة. وقد حضرت الزائرات لمقابلة زوجتي وهن في حالة كرب عظيم. وقد قلن لزوجتي: «سعيدة، أبحثي عنها مرة أخرى، فتشي المنزل بدقة، فلا بدّ من أن تجديها. وحتى لو لم تجديها ما الأهمية فلديك الكثير من السكاكين، وفقد إحداها لن يضرك بشيء». وأجابتهن زوجتي: «أنتن لا تعرفن ما الموضوع، فكل الشوك والسكاكين تلقيتها وزوجي كهدايا يوم زفافنا وهي بالتالي عزيزة علينا كثيراً. وهذه الهدايا مرتبة في مجموعة من ست أو اثنتي عشرة قطعة، وأصبحت مجموعة سكاكين الفاكهة المهداة إليّ من صديق عزيز ناقصة الآن، إذ بقيت خمس سكاكين فقط». وغادرت النساء الأربع البيت وهن منزعجات كثيراً.

واستمر الوضع على المنوال نفسه بضعة أسابيع عادت بعدها النساء الأربع وقلن لزوجتي: «يا سعيدة إن هذه المسألة تكاد تقتلنا. فماذا نفعل إذا وصلت إلى سمع الشيخ أو إذا سمع بها رجالنا؟». وكنت دائماً أتساءل هل «تمكنّ من ذلك. فهناك الكثير من الأمور تجري في أجنحة النساء في البيوت لا يعلم الرجال عنها شيئاً».

وقالت زوجتي للنساء: «كل ما أريده هي سكينتي. وأنا متأكدة أن باستطاعتكن إعادتها إذا بذلتن مجهوداً».

وعادت النساء بعد بضعة أيام ولديهن خطة. وقلن لزوجتي: «سعيدة لقد استنتجنا أن الطريقة الوحيدة لمعرفة السارق بيننا هي

بإحضار مُلاّ من أحد الجوامع إلى بيتك حيث تمت السرقة ليقرأ القرآن الكريم فوق رؤوسنا – نحن الست. وأثناء قيم الملاّ بالقراءة ترتجف المذنبة وتتمزق وتموت، وهكذا تظهر الحقيقة».

وأفهمتهن زوجتي أنها لا توافق على مثل هذا التصرف وأضافت أنها متأكدة من أنهن يعرفن السارق وأن بإمكانهن إرجاع السكين إذا أردن حقاً.

وقام أحد خدم المستشفى يوم أول مارس بإحضار السكينة وقال إنه وجدها تحت إحدى الأشجار في باحة المستشفى وكانت السكينة نظيفة ولماعة وبدا واضحاً أنها لم تتعرض للطقس مدة الخمسة أسابيع تقريباً. ولم أعرف وزوجتي ما الذي حدث، لكننا كنا متأكدين من أن الخادم قد تلقى رشوة وأمر بأن يقول لزوجتي إنه وجد «السكينة».

العين بالعين

إن العقاب التقليدي للسرقة في الجزيرة العربية قاس جداً. وهو لا يقل عن قطع اليد ويمكن تسمية العملية بتراً، لأن ذراع السارق توضع فوق قطعة خشبية كبيرة ويقوم الجلاد بفصل اليد عن الذراع بضربة واحدة بالسيف أو الفأس. وإذا كان الجلاد غير ماهر أو إذا كانت الفأس غير حادة يضطر الجلاد إلى ضرب اليد عدة ضربات إلى أن يفصلها عن الذراع.

ويجري إيقاف النزف الناتج عن القطع بوضع اليد في زيت مغلي، أو بكيها بقضيب حديد حام. وتصاب اليد المقطوعة بالغرغرينا (التهاب) ويتساقط الجلد حتى المرفق، بينما تبرز عظمة من الالتهاب ذي الرائحة الكريهة. ويتألم صاحب اليد المقطوعة ألماً عظيماً إلى أن يحدث شفاء جزئي حين يختفي الألم كله. ولكن العظمة تبقى نائئة بضع بوصات من مكان القطع.

وكانت أول عملية جراحية قمت بها منذ أربعين عاماً في البحرين عملية قطع ذراع من الإبط نتيجة لقطع اليد. وقد جاءني من وسط الجزيرة حيث قطعت يده لمخالفته القانون. وكانت يده متسخة ولم تتماثل للشفاء بعد وتبرز منها عظمة طولها خمس أو ست بوصات. وقد مضى على قطع يده عدة شهور. وقد تماثل عندي للشفاء وغادر المستشفى في حالة جيدة. وأجريت عدة جراحات لحالات مماثلة فيما بعد. وكان قطع اليد أمراً منتشراً في تلك الأيام.

ولكن تاريخ الكويت الحديث لم يشهد قطع اليد اليمنى لسارق. وهذا دليل على تقدم الكويت التي أصبحت تتمتع بخدمات قوة بوليس ممتازة.

الفتاة ممنوعة من الغزل

إن الفتاة العربية، كزوجة قيصر، يجب أن تبقى فوق الشبهات. ويمكن حتى للشبهة أن تكلفها حياتها. ويكفي أصغر انحراف عن الخلق العربي أو أقل همس في المدينة لتدمير شرف فتاة بريئة كل البراءة.

وإذا أصبح شرف الفتاة موضع تساؤل لا يمحى العار اللاحق بالعائلة سوى بموتها. ومن واجب الأخ الأكبر أو ابن العم الأكبر أن ينفذ بها حكم الإعدام، وهذا القانون الذي لا رأفة فيه ولا رحمة كان متبعاً في العائلة العربية زمناً طويلاً لم يعد يشعر معه أحد بأنه قانون قاسٍ، ويكاد المرء لا يسمع كلمة واحدة عن الفتاة المنحرمة. فهي قد انحرفت وهي تعلم تمام العلم مدى المخاطرة التي أقدمت عليها ولذلك عليها أن تدفع الثمن. ولا بدّ أن يكون مصيرها رادعاً لغيرها.

وهناك ظروف معينة لا تقتل فيها الفتاة وإنما تعاقب بطريقة أخرى. فهي تسجن في غرفة يجري إغلاق نوافذها وأبوابها بالإسمنت. وتترك فتحة صغيرة في الجدار يمكن من خلالها إمداد السجينة بالطعام والماء.

كان أحد مرضاي في صيف عام 1915 تاجراً ثرياً من الكويت، وكان مصاباً بالسلّ إصابة بالغة. وكان رجلاً عصامياً بدأ حياته كعامل بناء وجمع من مهنته مبلغاً – لأن معلمي البناء يأخذون أجوراً مرتفعة في الكويت – دخل به تجارة اللؤلؤ ونجح. ولكنه كان مصاباً بالسلّ، وكان واضحاً أنه لن يتماثل للشفاء.

وكانت إحدى بناته فتاة جميلة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، جميلة كاللعبة وروحها مرحة. (كان لي الحق بصفتي طبيب العائلة بدخول جناح النساء حيث كان مريضي يستقبلني دائماً. ولا يسمح لأي شخص عادي بدخول جناح النساء).

وقد قيل لي إِن الفتاة جريئة بعض الشيء مع الصبيان إِذ تقوم بمناداتهم عن السطح أثناء مرورهم بالشارع. وشعرت بأن ذلك لهو بريء تماماً. لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أنها تتبادل الرسائل مع شاب بوساطة رسول. واعتبر عملها مشيناً وقد أمر والدها، رغم أنه يحبها كثيراً، بوضعها في غرفة مغلقة وبإِعطائها كميات قليلة من الطعام الرديء.

ومر أربعون يوماً على سجنها، وهي الفترة التي تعتبر أقصى حكم في هذه الحالات ولكن والدها – الذي يحتضر، رفض إطلاق سراحها، وقد رجوته كثيراً وذكرته بأن الدنيا صيف وأن الحجرة المعتمة التي حجزت فيها الفتاة أشبه بالفرن، وأن حياتها في خطر بسبب الحر والجوع والوحدة. ولكن رجائي لم يشفع لها عنده، ورفض مجرد بحث الموضوع معي.

وذهبت للشيخ لكنه شعر بعجزه عن المساعدة في هذا الموضوع وقال لي: «أنا لا أتدخل أبداً في مسائل الشرف العائلية، والقرار يرجع إلى أهل الفتاة. وهذا حقهم المطلق منذ بداية التاريخ العربي».

ومات والد الفتاة بين يديّ ولم أنس كلماته الأخيرة: «لقد فنيت».

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها مثل هذا الكلام من عربي يحتضر.

وظلت الفتاة سجينة إِذ رفض إِخوتها إِطلاق سرحها وكان مؤكداً أنها إِذا بقيت سجينة ستلحق بوالدها.

وبينما كان المعتمد السياسي البريطاني يتناول الشاي عندنا، روت له زوجتي قصة الفتاة الصغيرة التي كانت تمضي الشهر الثالث في الحجرة المغلقة. وحالما أنهت زوجتي القصة بقولها إن إطلاق سراح الفتاة لا يبدو محتملاً، وقف المعتمد عن كرسيه وهو يقول: «يا إلهي، يا إلهي. لن أسمح بهذا. هذا الأمر لن يتم». وغادر منزلنا وهو في أشدّ حالات الانزعاج.

ولم نعرف ما حصل بالضبط، لكن يبدو أن المعتمد السياسي قد قابل الشيخ وأصر على إصدار أوامره لأهل الفتاة بإطلاق سراحها فوراً. وأرسل لنا المعتمد رسالة يخبرنا فيها أن الفتاة ستكون طليقة عمّا قريب. وذهبت زوجتي إلى منزل الفتاة وكانت حاضرة عندما وصل رجال الشيخ من القصر ومعهم أمر بإطلاق سراح الفتاة، وتم إحضار عمال فوراً قاموا بهدم الجدران. ولم تنتظر الفتاة انتهاء العمال من هدم الجدران بل قفزت من الغرفة عندما هدموا فتحة كافية لخروجها. وأخذت تركض فرحة كالمجنونة حتى سقطت مغمياً عليها من الإعياء.

معجزة شفاء

عدت وزوجتي إلى الكويت في منتصف أكتوبر عام 1917 من إجازة دامت ثلاثة شهور قضيتها في كشمير. وباشرت فور عودتي في إعادة النظام اليومي للعمل في المستشفى إلى سابق عهده. وأثناء تناول العشاء في اليوم نفسه، سمعنا طرقاً على الباب. وكان الطارق

رجلاً أعرفه بالمشاهدة فقط ينتمي إلى أكبر عائلة في الطرف الغربي من المدينة – عائلة محافظة وأرستقراطية لها عدة بطون وفروع عربية حتى الصميم، ومنازلها تغطي منطقة كبيرة لم يكن موقف هذه العائلة ودياً تجاه الإرسالية الأمريكية.

وكان لمجيء زائري في الليل دلالة. فهو ربما لم يشأ أن يشاهد وهو يدخل منزل الطبيب المسيحي. وأظن هذه أول مرة يطأ فيها الرجل أرض الإرسالية. فلم يكن المبشرون محبوبين في تلك الأيام.

حياني الرجل بأدب وباللطف العربي التقليدي، ثم قال لي إن ابنه البالغ من العمر سبع سنوات مصاب بالحمى وعنده تقرحات تنز قيحاً وإن «الأطباء» المحليين اعتبروا حالته ميؤوساً منها. وسألني إذا كنت أقبل أن أعاينه، وكانت علامات وجهه تدل على اليأس والقلق الشديد. وأدركت أن الحاجة دفعته إلى طلب مساعدة المسيحيين.

وسرنا معاً صامتين، وأخذني إلى الجناح الخاص بالنساء وأدخلني غرفة ضيقة طويلة مظلمة وخالية من الأثاث تقريباً. وشاهدت في نهاية الغرفة كومة بلا حراك، فاتجهت إليها. وتكلم الرجل لأول مرة منذ مغادرة منزلي: «هذا ابني أ.»، ثم أزاح عنه البطانيات التي كانت تغطيه كلياً. وكان منظر الولد محزناً بالفعل، فقد كان هيكلاً عظمياً. وقد صرخ الولد عندما شاهدني، فكلمه بلطف ورقة. وأفهمه أنني الرجل الوحيد في الكويت القادر بعون الله على شفائه. وأضاف بأنني أحب المرضى، وأن كل ما أريده هو إلقاء نظرة عليه.

ومنذ تلك اللحظة أحببت هذا الأب الذي أصبح فعلاً أقرب صديق عربي إليّ.

وهدأ الولد، وتعودت عيناي الظلمة، ولمسته فوجدت حرارته مرتفعة جداً. وكان الولد جالساً وقد ألصق ركبتيه بذقنه. وما لبثت أن وجدت أن ركبتيه متيبستان وأنه لا يستطيع مد رجليه. وأفاد والده بأن ركبتيه متيبستان منذ عدة أسابيع وأنهما تزدادان تصلباً. وكانت فخذاه وإحدى كتفيه ملفوفة بقماش تفوح منه رائحة كريهة ناتجة عن تقيح مفاصل الولد المريض. وعندما نزعت ثياب الولد وجدت تقرحات تنز قيحاً على الوركين وعلى كتف واحدة. وبدا من الواضح أن هذه التقرحات تصل حتى المفاصل.

ولم أستعمل الأدوات الطبية لفحص الولد. وكان الولد هادئاً تماماً ينظر إليّ وفي عينه تساؤل. وقد أعدت لف وركيه وكتفه بالقماش برقة، ثم غطيته بالبطانيات.

وسألني والده بعد أن خرجنا (ماذا تعتقد؟ إن «الأطباء» المحليين يقولون إن شفاءه غير ممكن. فهل بإمكاك أن تعطيني أي أمل؟).

وأجبته: «يا والدي إن حالته يائسة حقيقة وشفاءه غير ممكن. ولكن هناك شيئاً واحداً يمكننا عمله وهو شق التقرحات وتنظيفها حتى أصولها. والمسألة مخاطرة، فقد يموت الولد على طاولة العمليات. ولكن هذه فرصته الوحيدة. وإذا لم نفعل له شيئاً فسيموت قريباً جداً».

نظر إليّ الوالد نظرة ثاقبة للحظة، ثم تكلم ببطء ووضوح: «يا دكتور، إنني أصدق كل كلمة قلتها. وابني بين يديك. وسيشفى بإذن الله».

وقلت له: «حسناً، أريدك أن تحضر ابنك صباح الغد إلى المستشفى لكي نقوم بإعداده للعملية. كما أود أن يظل بعد العملية في المستشفى لكي يكون تحت إشرافي ليلاً ونهاراً».

اعترض الرجل قائلاً: «لو سمحت يا دكتور، أنا لا أريد أن يعيش ابني في المستشفى فأنا متأكد بأن صاحب البيت المجاور سيسمح لنا باستعمال بيته. وأرجو أن تحضره بعد العملية إلى البيت المذكور».

ولم يكن ذلك الترتيب مثالياً، لكنني قبلته لتجنب تعقيد الموضوع. وتمت العملية صباح اليوم التالي. وقد انتابني قلق شديد أثناءها لأن الولد كان هزيلاً وضعيفاً بشكل يرثى له، وكانت حرارته مرتفعة. ولم يكن البنسلين أو أدوية السلفات معروفة في تلك الأيام ولحسن الحظ كانت كمية صغيرة من الكلوروفورم كافية لإبقاء الولد غائباً عن الوعي، فاشتغلنا بأكبر سرعة ممكنة. ونقلناه بعد العملية إلى المنزل المجاور حيث بقي عدة أسابيع.

ولا أذكر الآن عدد المرات التي اضطررنا فيها لإعادة إجراء الجراحة له، لكن أعتقد أنها كانت أربع أو خمس مرات نجحنا تدريجياً حتى في فلك التيبس في مفاصل الركب، وتمكن الولد من مد ساقيه وطيهما بشكل طبيعي تماماً.

وكان صراعنا ضد مرضه طويلاً ومريراً. فقد كان علينا تنظيف الجروح يومياً، وكانت إزالة اللصقات المتسخة عملية شاقة. ولا أزال أسمع الولد الشجاع وهو يصرخ: «يا دكتور لا تضع لصقات أكثر من العدد اللازم».

وكان الولد يعبر عن تقديره بين الحين والآخر بإعطائي مبلغاً من المال. وقد كتبت في مفكرتي بتاريخ 12 يناير عام 1918 ما يلي: «لقد أعطاني والد الفتى المريض حتى الآن مبلغ خمسمائة روبية مكافأة على معالجة ابنه». وكانت القوة الشرائية للروبية في ذلك الوقت ثلاثة أضعاف قوتها الحالية وتكلفة المستشفى بسيطة جداً. وتلقيت دفعات أخرى من والد الفتى بلغت في مجموعها آلاف الروبيات. وكان دائماً يدفع لي بالعملة الذهبية، ومن تلقاء نفسه.

وبمرور الشهور تحققت المعجزة. وتماثل الفتى تماماً للشفاء. وحلّ اليوم السعيد في منتصف صيف عام 1918 وأخبرت الوالد أن ابنه قد تعافى وقام الوالد بإلقاء خطبة قصيرة على ولده، أشعر الآن بالأسف لعدم تسجيلها. ولكن فحواها كانت كالتالي:

«ولدي الصغير، لا تنسَ أبداً أنك مدين بحياتك لهذا الطبيب فلا شك في هذا إطلاقاً. وقد أصبح لك من الآن وصاعداً والدان، ولكن الطبيب يأتي قبلي. أحببه وأخلص له طوال حياتك».

وقد زرت بيتاً كويتياً بارزاً بعد ذلك بفترة وكان في غرفة الاستقبال اثنا عشر رجلاً من وجوه المدينة من بينهم والد الفتى.

وحالما شاهدني بدأ يخبر أصدقاءه عن مرض ابنه وشفائه المثير للإعجاب. وكان يبدو أن واحداً أو اثنين من الحاضرين لم يسمعا القصة من قبل. ولذلك قام الولد بإرسال من يحضر ابنه. وعندما وصل الولد أمره والده بخلع ملابسه لكي يرى كل الحاضرين الآثار التي تركتها سكينة الجراح.

وعندما خلع الولد ثيابه، قام والده بإلقاء خطاب مؤثر في الحاضرين حثهم فيه على التعامل معنا. وقد قال لهم: «إلى متى ستظلون ترفضون التعامل مع طبيب الإرسالية؟ إنكم تستمرون كما فعلت أنا، في وضع حياتكم وحياة أبنائكم بين أيدي المشعوذين المحليين الذين لا يفقهون شيئاً في الطب. فقد قالوا جميعاً إن ابني سيموت. وأنتم تعرفون رأيهم هذا. وكنا نعتقد أنهم على صواب ولكنهم كانوا مخطئين والحمد لله. انظروا إلى ولدي إنه قوي وسمين وبصحة جيدة. وكلكم تعرفون سوء حالته المرضية. ومن الذي شفاه؟ هذا الطبيب، بعد الله. وأنا فخور بأن يكون لي صديق مثله. فهؤلاء الأطباء العصريون يذهبون إلى المدرسة والكلية، ويتلقون العلم ويكتسبون المعرفة. أرجو منكم جميعاً أن تصغوا لنصيحتي. ودعوا طبيب الإرسالية يهتم بكم وبعائلاتكم عندما تحتاجون لأية عناية طبية».

ومع مرور السنين توثقت علاقتي بوالد الفتى وتعمقت. وبدا وكأنه يعرف أن بمقدوره مساعدتي على إنجاح الخدمات الطبية الخاصة بالإرسالية وأنه مصمم على مساعدتي. وكان يؤمن بخدماتنا

الطبية لدرجة تجعل دعمه لها أمراً طبيعياً. وكان يحضر إليّ باستمرار المرضى من معارفه وأصدقائه الأرستقراطيين، ومن الفقراء والمحتاجين الذين كان يجمعهم من الأماكن العامة والشوارع. وكان من نوع الرجال المشغولين جداً والذين يجدون مع ذلك الوقت لعمل كل ما يبغون.

وكانت صداقته لا تقدر بثمن إذ فتحت لي الباب تلو الباب لبيوت كدت أيأس من دخولها. وأصبحت لي صداقات في كل هذه البيوت. وكان والد الفتى محبوباً ومحترماً ومقبولاً وكلمته مسموعة من الجميع نظراً لخلقه الحميد واستقامته. ولم أسمع في حياتي شخصاً يطعن في نزاهته وإخلاصه. وإنني متأكد أنه لولا مساعدة والد الفتى لاحتاجت الإرسالية الأمريكية إلى عدة سنين أخرى كي تلقى القبول من غالبية سكان الكويت.

كنت يوم 12 فبراير عام 1921 مع زوجتي في بومباي في طريق عودتنا إلى الولايات المتحدة لقضاء إجازتنا الثانية، وكان والد الفتى في الهند في رحلة عمل. فقررت أن أزوره وأودعه. وقد غادر قطارنا بومباي إلى كلكتا الساعة التاسعة مساء وكنا نعتزم ركوب سفينة من كلكتا إلى اليابان لزيارة أخت زوجتي التي كانت مُدرسة في مدرسة «جوشي غاكوين في طوكيو».

وكان الجو حاراً تلك الليلة، فوقفنا على رصيف محطة القطارات تحت مروحة كهربائية كبيرة، ولمحنا في هذه الأثناء والد الفتى وأحد

أفراد عائلته يتجهان إلينا. وكان يتبعهما حمالان يحمل كل منهما سلة كبيرة على رأسه، وقد أمر والد الفتى الحمالين بوضع السلتين على الأرض وكانت إحداهما ملأى بالزهور وفيها إكليلا ورد. وأمرهما والد الفتى بدخول عربة القطار الخاصة بنا وتزيينها بالزهور، وما إن انتهينا حتى كانت العربة شبيهة بحجرة العروس. ثم قام والد الفتى بوضع إكليل ورد على عنقي وإكليل آخر على عنق زوجتي تبعاً للتقاليد الهندية، وتمنى لنا سفرة سعيدة بلغته العربية الجميلة. أما السلة الثانية فكانت مليئة بكميات كبيرة من أنواع الفاكهة المختلفة كالمانجو والعنب والموز والبرتقال وغيرها، وبكميات تزيد كثيراً عن كفايتنا في هذه الرحلة التي تستغرق 36 ساعة.

وصرف والد الفتى الحمالين ثم ظل معنا إلى أن بدأ القطار بالتحرك. وبعد أن دخلنا عربتنا أغلق صديقنا بابها، ثم ناولنا من النافذة عصا جميلة للمشي كتذكار أخير.

وقد جاء في مفكرتي بتاريخ أول مارس عام 1932: «مات والد الفتى عند الفجر نتيجة لذبحة قلبية. وهو أفضل وأقرب صديق لي في الكويت. مات عزيزاً». وقد كتبت آخر كلمتين بالعربية.

ولم تتخلل صداقتنا التي دامت خمسة عشر عاماً أية شوائب أو خلافات. فقد كان الرجل مسلماً متعصباً ومخلصاً، ولكنه على استعداد دائم للإقرار بحسنات وميزات الدين المسيحي ولتبيان هذه الحسنات لمن حوله. وكانت حياته العائلية مثالية، وله زوجة واحدة.

وكنت أعالجها كلما دعت الحاجة. وكانت سيدة محترمة. وكانا متعلقين ببعضهما البعض ورفيقين حقيقيين حتى نهاية حياتهما.

وقد شاهدت ابن صديقي الذي أشفيته من مرضه، منذ سنة في الكويت. وهو يحب أن يراني دائماً. ولا يخطر ببال من يراه بهذه الصحة والقوة أنه كان قاب قوسين أو أدنى من الموت وهو صغير. وقد بدأ شفاؤه صعب التصديق في ذلك الحين، وما زال صعب التصديق بعد ثلاثين سنة. ولم أفكر لحظة في بداية العلاج أنه سيشفى حقاً. ومع ذلك شفي وأصبح سميناً وقوياً ويبلغ عمره الآن أربعين عاماً تقريباً ويحتل منصباً حكومياً مهماً في الكويت. وكما يقول العرب دائماً: «ليطل الله في عمره».

مهتدٍ من الإسلام

أخذ شاب إِيراني في أوائل عام 1920 يتردد على المستشفى وأقام صداقة مع حارسه وكان الإِيراني صوفياً، وقد قارن مطولاً بين حسنات الإِسلام والمسيحية، وارتاح للمسيحية أكثر. وقد تم تعميده يوم 4 أبريل عام 1920، يوم أحد الرب، وتناول العشاء الرباني وحالما انتشر الخبر في السوق، تحول الناس ضدّ الإِيراني. ورفض الجميع تشغيله، وكان يجد صعوبة في شراء الشاي والسكر والمواد الضرورية الأخرى، لأن الباعة كانوا يرفضون بيعه. وأخذت فلوسه تقل تدريجياً، وجاءني يطلب عملاً.

ويؤمن كل مبشر بأن على المهتدين إلى الدين المسيحي أن يعتمدوا على أنفسهم فمن الواضح أنه حالما يعطي أحد المهتدين قرضاً أو وظيفة من الإرسالية يصبح عرضة للاتهام بأن الإرسالية قد رشته أو اشترته كي يصبح مسيحياً. وهذه المسألة صعبة الحل، أو لم يجر حلها على الأقل حتى الآن. فالجمهور يرفض تشغيل المهتدي أو الساعي إلى المسيحية، وعندما يضطر الأخير إلى قبول مساعدة الإرسالية تصبح مسألة حقيقة إيمانه عرضة للشك، ومما يعقد المسألة كون العديد من المتشردين يسعون لاعتناق المسيحية بهدف الحصول على وظيفة ذات راتب جيد.

وفكرت في هذه الأمور كلها عندما طلب مني الإيراني إيجاد وظيفة له. وأبلغته أن قيمته كمسيحي في الكويت ستكون أعظم بكثير إذا استطاع الاعتماد على نفسه وتجنب مساعدة الإرسالية المالية. فوافق على كلامي لكنه قال لي: «ماذا يمكنني أن أفعل؟ فليس هناك من يشغلني».

وكنت أعرف أن قوله صحيح، وأنه على الرغم من المبادىء والنظريات يجب عليّ أن أقدم على مساعدته إذ لم يكن أمامي خيار آخر.

وكان الإيراني بارعاً في العناية بالخيول وكانت هناك مناسبات عديدة شاهدته خلالها يهتم بحصاني. وطلبت منه العناية بحصاني فوافق على الفور. وتعود حصاني عليه وأحب هو الحصان وأصبحا

صديقين حميمين. وقد علَّم الحصان كيف يتبعه، وكان يأخذه في الشتاء بعد عودتي من مشوار طويل ويريحه نصف ساعة حتى يزول العرق عنه وتخف حرارته ثم يدخله إلى الأسطبل. أما في الصيف فلم يكن هذا الإجراء ضرورياً. ونادراً ما كان الإيراني يستعمل اللجام، لأن الحصان كان يطيعه عندما يتكلم إليه. ولم يكن الحصان ليتبعني بتاتاً. أما الإيراني فكانت له طريقته الخاصة في معاملة الخيول، لأنه كان شاباً رقيقاً، وقد سمعت أنه يمتلك مزرعة صغيرة ما بين بوشهر وشيراز في إيران، لكنني لم أتأكد من صحة هذه المعلومات. وظل الإيراني فترة سعيدة جداً في العمل معنا وساعدته على استرداد صداقته مع حارس مقرنا، وهو أيضاً مسلم جاء من شمالي الهند وتحول إلى المسيحية، وبالإضافة إلى ذلك كان الحارس يتكلم الفارسية بطلاقة، وقد أزالت تلك الصداقة الوحدة عن نفس الإيراني. ولكنهما كان يختلفان بين الحين والآخر، وكان الإيراني السبب في الخلاف باستمرار، لأن معاشرته صعبة حيث كان عصبي المزاج، سريع الغضب فخوراً بنفسه كثيراً. وكان يستغل معرفته بأن الإرسالية تخشى إغضابه لأنه يسعى إلى اعتناق الدين المسيحي لتأمين حاجات خاصة، أو للحصول على معاملة خاصة من الإرسالية إذا أخطأ. ويعرف كل من له قدر بسيط من الخبرة في التعامل مع الساعين لاعتناق المسيحية هذه الأمور جيداً.

وقد ازداد تصلب الناس تجاه الإيراني وقاموا في 13 يوليو عام 1920 بضربه وتمزيق ثيابه وسرقة ساعته في السوق، لأنه ارتكب

الخطيئة التي لا تغتفر، وهي تفضيل المسيحية على الإسلام. فليس هناك مجال للتساهل مع المرتدين.

وحضر الإيراني في مساء اليوم نفسه لمقابلتي. كانت ثيابه متسخة وممزقة وروى لي قصته - التي بدت صحتها واضحة - ثم ختم كلامه بقوله إن الحياة لم تعد تطاق في الكويت وإنه مضطر لمغادرتها. ولم تكن لديه أية فكرة عما سيفعله أو إلى أين سيذهب. ولم يكن بإمكانه العودة إلى قريته لأنه أصبح مسيحياً.

فكرت في الأمر بعد ذهابه ثم قررت أن أقابل كبير قضاة الكويت. ورغم تأخر الوقت ركبت حصاني واتجهت إلى منزله. وحالفني الحظ لأن الشيخ كان في منزله ولم يكن عنده أحد، وكان يستريح في حديقة منزله نظراً لشدة الحر، وقد أصغى إلى قصتي بتأدب وبشيء من العطف، ثم قال لي: «لن يتكرر هذا. فأنا أعتقد أن الديانة التي يعتنقها الإنسان شيء خاص به ويبقى بينه وبين الله. وهذا العنف والضيق أمر خاطىء. أرسل لي الرجل غداً عندما تكون محكمتي منعقدة في العراء وسأتحدث حول المسألة».

ولم أصدق أذني. فقد كانت هذه أول مرة في حياتي أسمع رجلاً عربياً مهمّاً يعبر عن رأيه في هذا الموضوع بهذا التسامح.

وأرسلت الإيراني في صباح اليوم التالي تبعاً لأوامر الشيخ وقد فضلت ألا أذهب معه، كما أن الشيخ طلب مني البقاء بعيداً أثناء المحاكمة، ورافق الإيراني اثنان من موظفينا وبعد أن حيّا ثلاثتهم

الشيخ طلب من الإيراني رواية قضيته ففعل بأسلوب معتدل وبلهجة معقولة، حسب رأي اللذين رافقاه.

سأله الشيخ: «من الذي سرق ساعتك؟». فذكر الإيراني اسمه.

«وما هي أسماء الذين اعتدوا عليك ومزقوا ثيابك؟». وذكر الإيراني أسماءهم. وأمر الشيخ حرسه بالذهاب إلى السوق وإحضار كل المتهمين. وكان المدعي والمتهمون بعد وقت قصير يواجهون بعضهم البعض أمام المحكمة. وسأل الشيخ الإيراني: «من الذي أخذ ساعتك»؟ فأشار إلى اللص، فسأله الشيخ:

«هل سرقت ساعة هذا الرجل». واعترف الرجل بذلك ثم أقر بأنه أعطاها إلى مومس في الليلة السابقة.

وقال له الشيخ: «حسناً، ستدخل السجن وتبقى فيه إلى أن تعيد الساعة» وأمر الحرس بإبعاده.

واستنطق الشيخ الرجلين أو الرجال الثلاثة الآخرين فاعترفوا بالتهم الموجهة إليهم، فأمر الشيخ بسجنهم. وألقى الشيخ كلمة مؤثرة في الجمع مشابهة لما قاله لي أمس. وقد حذرهم قائلاً: «تذكروا أنني لن أسمح بإساءة معاملة أي إنسان في الكويت بسبب عقيدته الدينية»، واستمر في التحدث حول الموضوع نفسه مطولاً.

وقد أخبرني المرافقان بما حدث، بالإضافة إلى عدد كبير من الحاضرين. وظلت هذه القضية حديث الناس في الكويت لعدة أيام.

وبقي الرجال في السجن أياماً ولم يتمكن الحرس من استعادة

الساعة لأن المرأة التي أخذتها اختفت. وشعر الإيراني بالكآبة عندما استمر احتجاز الرجال في السجن، وكان لشعوره سبب وجيه – فقد كان يعرف أن ما حدث سيزيد من كره الناس له، كما أن الرغبة المسيحية «مكافأة الشر بالمعروف» كانت تفتعل في نفسه. وقصد الشيخ وطلب منه الإفراج عن السجناء. وقال للشيخ إن لهؤلاء الرجال عائلات تعتمد عليهم في معيشتها. ولا بدّ أن الشيخ قد استهجن طلب الإيراني لكنه وافق عليه وأطلق سراح السجناء يوم 22 يوليو. وقد قضوا تسعة أيام في السجن وهي عقوبة متساهلة. وأمر سارق الساعة بدفع مبلغ 44 روبية، قيمة الساعة، للإيراني. وقد سمعت أن الإيراني قد أعاد المبلغ إلى السارق، لكنني لست متأكداً من صحة هذه القصة. وعلى أي حال، حصل الإيراني على مقدار من الثقة من جراء تصرفه المذكور.

وكان موقف الشيخ من الاضطهاد الديني فريداً في تجربتي. فلم أختبر مثله قبيل حادثة الإيراني أو بعدها. وأنا مؤمن بأن الشيخ كان صادقاً كل الصدق مع نفسه وأنه عبر بتصرفه عن معتقداته، ولكنه حسب علمي لم يكرر إبداء آرائه علناً. وقد اتخذ موقفاً معاكساً تماماً، في الواقع، في حادثة واحدة على الأقل إذ وقف إلى جانب المتعصبين ضدّ أحد المهتدين إلى المسيحية. وليس هناك شك في أنه خضع لضغوط كبيرة من قبل بعض وجهاء المدينة فحتى كبار القضاة من البشر لا تتوافر لديهم الشجاعة دائماً للتصرف بحسب معتقداتهم. «إذ تركت الرجل حراً، فأنت لست صديق قيصر».

ويرقد كبير القضاة الآن في قبره، لكنني عرفته جيداً وكانت هناك مناسبات عديدة تبادلنا فيها الحديث. وكان مسلماً مخلصاً وملتزماً إلى أبعد الحدود، ولكنه كان في الوقت نفسه معجباً كثيراً بالمسيحية وباهتمامها بجوهر الأمور بدلاً من مظهرها.

ولم يستقر الإيراني نهائياً في الكويت. وكان يصاب بحالات من الارتياح والضيق النفسي، وكانت حالات انكماشه أكثر من حالات انفراجه. ولست أذكر الآن، بعد ثلاثين سنة، متى غادر الإيراني الكويت ولماذا. فحياة المرتد عن الإسلام عبارة عن معركة قاسية لأن كل الناس يقفون ضده. وقد قال بعض الناس إنه عاد إلى قريته في إيران. وإذا كان هذا صحيحاً، فأنا أتساءل هل ترى استطاع المحافظة على ولائه لدينه الجديد أم أنه استسلم لضغط الظروف وارتد إلى دين آبائه. وليس لديّ شك في أنه يؤمن في قرارة نفسه بأن الدين المسيحي هو الإيمان الحقيقي. وليحفظه الله إذا كان لا يزال حياً.

الصحة العامة في الكويت

لا يتوافر في المدينة الحديثة من أسباب الراحة ما هو أعظم من توصيل المياه إلى بيوتنا وتركيب الأدوات الصحية فيها. فإن مقدرتنا على فتح صنابير المياه والتزود منها بالمياه الحارة والباردة رفاهية لم يحلم بها أجدادنا. فالنظافة التي نعرفها اليوم، تأتي حتماً بعد الإيمان، وكان توافرها مستحيلاً منذ مائة عام.

وقد مكن توافر المياه في المنزل من دفعها إلى المرحاض، مما وضع نهاية للمراحيض القديمة غير الصحية.

ولم تكن هذه الرفاهية ممكنة التحقيق لولا الأنفاق العميقة والمخفية والتي لا نعطيها حقها في التفكير ونسميها مجاري، إذ تتدفق فيها كل الأوساخ من بيوتنا. وهذه المجاري إحدى معجزات عصرنا، ولا يتمالك المرء نفسه من الإعجاب الكبير بالمهندسين ومخططي المدن عندما يفكر الإنسان بمئات الأنفاق العظيمة التي تنقل أوساخنا ومياهنا.

وينظر معظم الناس، وخاصة الذين لم يعيشوا في الريف، إلى هذه التجهيزات على أنها أمر طبيعي ولا يفكرون بما كانت عليه مدننا منذ مائة وخمسين عاماً.

والمياه في الكويت مالحة وقليلة، وهي بالتالي ثمينة. وتوجد بعض الآبار خارج سور المدينة توفر مياهاً صالحة للشرب، ولكنها صالحة للشرب فقط لأن فيها نسبة معينة من عدة أنواع من الأملاح. وعندما كانت مدينة الكويت صغيرة، كانت هذه الآبار توفر المياه اللازمة للشرب، ولكنها غير كافية اليوم لأن عدد سكان الكويت أصبح 120000 نسمة. وفي الواقع، كانت مياه هذه الآبار غير كافية خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية، عندما بدأت المدينة تأخذ مياهها من شط العرب الكبير الذي يبعد عنها ثمانين ميلاً، ويوجد اليوم أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة شراعية مهمته الوحيدة الإبحار ما بين الكويت وشط العرب لنقل المياه. وقد تم منذ سنتين تدعيم هذا

الأسطول بناقلة حمولتها 8000 طن، ومع ذلك فلا تزال حاجة الكويت إلى المياه العذبة أكبر مما يتوافر لها.

ويجري هذه السنة، عام 1950، إعداد خطة محددة لبناء معمل كبير لتحلية مياه البحر يتمكن من توفير المياه لـ120000 نسمة.

وتفتقر الكويت حالياً إلى المادة الأساسية للوقاية الصحية، وهي الماء. ومن المحتمل أن تحل هذه المشكلة باستعمال مياه البحر. فمن السهولة الاعتماد على مياه البحر، وهي صالحة تماماً لأغراض الوقاية الصحية، ولأعمال البلدية مثل رش الشوارع بالماء. وإن معمل أنابيب الأسبستوس (الحرير الصخري) الذي أنشأته حكومة البحرين حديثاً سيحل مشكلة تآكل الأنابيب الحديدية. وبوجود مصنع التحلية الذي سيوفر مياه الشرب والغسيل، وبالاعتماد على البحر في المياه اللازمة للاستعمالات الأخرى ستتمكن الكويت من توفير حاجتها من المياه.

ويحتاج كل هذا إلى مقدار كبير من المال، ولدى الكويت مقدار كبير من المال. وسيتزايد ما لديها من المال أكثر فأكثر في المستقبل. فقد شحن من ميناء الكويت 12 مليون طن من النفط عام 1940، ولا تتردد الكويت في إنفاق الأموال على تحسين وتطوير خدماتها المدنية، كما تدل على ذلك إنجازاتها في السنين الثلاث الماضية. إذ تمت إعادة تعمير مساحات واسعة من المدينة، بما فيها كل مباني الميناء والجمارك. وقد كلف المستشفى الحكومي الجديد مبلغ مائة ألف جنيه استرليني، ويعتبر مفخرة لكل من أسهم في بنائه.

ولكن نظام الوقاية الصحية الأفضل غير متوافر في الكويت حالياً. ويجري الآن بناء مراحيض في عدد كبير من المنازل. كما يجري تركيب هذه المراحيض فوق حفرة عميقة وتكون في معظم الحالات عبارة عن خزانات عفنة لا يجري تنظيفها إلا فيما ندر. ولكن عدداً كبيراً من الناس يفضلون تنظيف الحفر بين الحين والآخر.

وهناك رجال يمتهنون تنظيف هذه الحفر، وعادةً ما تراهم يتجولون في المدينة اثنين اثنين وينادون بأعلى صوتهم معلنين استعدادهم لتنظيف حفر المراحيض، ويحمل كل من هؤلاء سطلاً وحبلاً. وما زلت أذكر جيداً رجلين كانا يمارسان هذه المهنة. كان الرجلان فاقدي البصر «ويجر كل منهما الآخر» عبر الشوارع «دون أن يقعا في الحفر». وكان منظرهما مألوفاً في الكويت لسنين عديدة.

وكانت عملية تنظيف هذه الحفر تنطوي على خطر كبير وهو خطر استنشاق الغازات السامة الثقيلة المتواجدة دائماً في أسفل الحفر. ويتعرض العامل إلى احتمال استنشاقه الغازات فجأة وغيابه عن الوعي. وعادة ما لا يتخذ عمال التنظيفات أية إجراءات وقائية لمجابهة حالة طارئة كهذه. فهم لا يضعون سلماً داخل الحفرة ولا يحملون معهم حبلاً إضافياً. ولا يمكن للعامل الذي خارج الحفرة أن يساعد رفيقه لوحده. ولا يكون هناك عادة من يساعده. ويموت الرجل الذي في الحفرة خلال لحظات.

وحتى في الحالات النادرة التي يتوافر فيها سلم وحبل ورجل ثالث أثناء الحادث يبدي الحاضرون تردداً طبيعياً في النزول إلى الحفرة الخطرة. وفي الواقع، فإن إنقاذ من في الحفرة صعب جداً حتى لو توافرت الرغبة التامة في إنقاذه، هذا إذا تركنا جانباً خطورة محاولة الإنقاذ فإن لف حبل تحت كتفي الرجل فاقد الوعي والملقى على الأرض والمغطى بالأوساخ يتطلب وقتاً وقوة. وفي أحيان كثيرة يفقد المنقذ وعيه قبل أن يتمكن من لف الحبل حول كتفي رفيقه، وتكون النتيجة ميتين بدلاً من ميتٍ واحد.

وقد سجلت إحدى هذه الحوادث التي حصلت في الكويت في 14 أغسطس عام 1920، فقد وصلت إلى المنزل وشاهدت سلَّماً أنزل في الحفرة ورجلاً واقفاً فوق ثاني أعلى درجة في السلم وهو يحاول تعليق جثة أحد الرجلين اللذين ماتا في قعر الحفرة بوساطة حديدة لها خمسة أضلع ومربوطة بحبل متين. وقد تساءلت عن المدة التي قضاها الرجل في محاولته تلك! ونظرت إلى داخل الحفرة فأبصرت جثتين في قعرها. وكانتا بلا حراك. وأدركت أن ما حدث هو ما يحدث دائماً نفسه، فقد استنشق أول من نزل الحفرة الغازات السامة وفقد وعيه، فاندفع رفيقه وراءه محاولاً إنقاذه فاختنق بالغازات السامة.

وأسرعت بأخذ الحبل والحديدة من الرجل وربطت نفسي تحت الإبطين بحبل آخر، ثم قلت للرجل إنني سأنزل إلى الحفرة وإن عليه أن يمسك بطرف الحبل الذي يربطني جيداً، وإذا شعرت بأنني أغيب عن

الوعي فسأشد الحبل شدة قوية كي يسحبني فوراً بمساعدة الأشخاص الموجودين معه. وعندما بدأت بالنزول حضر صاحب البيت راكضاً وهو يصرخ: «لا تنزل يا دكتور، أحلفك بالله لا تنزل، فقد مضى على وجود الرجلين في الحفرة نصف ساعة على الأقل، وليس هناك أمل في أن تجدهما على قيد الحياة. وأنا لا أسمح لك بأن تجازف بحياتك مقابل لا شيء، وسيتمكن رجالي من إخراج الجثتين بوساطة الحبل والحديدة. بالله لا تنزل إلى الحفرة».

وبدا واضحاً أنه من السخافة بمكانٍ أن أنزل إلى الحفرة في وضع كهذا، فعدلت وبقيت أنتظر حتى تمكن الرجال من سحب الجثتين بالحديدة.

وقد انتهزت الفرصة لأؤكد ثلاثة مبادىء:

يجب أن يكون الرجل الذي ينزل إلى الحفرة لملء السطل بالأوساخ مربوطاً بحبل متين تحت إبطيه على أن يمسك رجلان قويان على الأقل بطرف الحبل لكي يتمكنا من سحب الرجل المسمم بالغازات فوراً.

إن على عمال التنظيفات أن يعملوا كفرق مؤلفة من ثلاثة أفراد، على الأقل، بدلاً من فردين. فإن رجلاً بمفرده لن يتمكن من سحب رفيقه من الحفرة.

يجب أن يوضع في الحفرة سلم أثناء العمل، وأن تتوافر حبال إضافية للطوارىء.

ونلت مكافأة مالية مضاعفة على خدماتي. فقد تأثر الجميع باستعدادي للنزول إلى ما بدا أنه موت محتم من أجل من وصفوهما بأنهما صعلوكان لا يساويان شيئاً[1].

وحضر رب البيت في اليوم التالي لمقابلة زوجتي، وكنت حينئذٍ في المستشفى. وقد أخبرها القصة كلها وطلب منها أن تأخذ مني وعداً بألا أنزل إلى إحدى حفر المراحيض. فقد كنت في نظره شخصاً مهماً وثميناً لدرجة لا يحق لي معها القيام بمخاطرة رهيبة كهذه. وقد تأثرت كثيراً عندما أخبرتني زوجتي بمجيئه وبمدى قلقه عليّ واهتمامه بسلامتي.

وقبل ستة أعوام من تلك الحادثة تقريباً، أي في الرابع من أغسطس عام 1914 عندما أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا، حدث أن دعيت في الواحدة بعد الظهر، إلى منزل على بعد ميلين من الطرف الشرقي للمدينة. كان الطقس حاراً جداً وكنت أتناول الغداء، فركبت حصاني وانطلقت. وفوجئت عند وصولي إلى المنزل بوجود أربعة مرضى بدلاً من واحد. وكانت أجسادهم ممدة على الشرفة بجوار بعضها. كان المرضى ثلاثة شبان إخوة وأختهم الصغيرة البالغة ثماني سنوات، وكانت البنت وأحد الإخوة ميتين. وأحد الأخوين الآخرين غائباً عن الوعي والثاني يستعيد وعيه. وكان

(1) هذا الوصف – في الغائب – من عند المؤلف، فقيمة الإنسان أياً كان في المجتمع الكويتي المسلم محفوظة، وحياته لها حرمة معروفة.

على الشرفة عدة رجال قاموا بإِخراج الأربعة وحملهم إِلى المنزل. فما الذي حدث؟ يبدو أنه قبل أن تتناول العائلة غداءها افتقدت البنت الصغيرة، فذهب أحد إخوتها يبحث عنها فوجدها في قعر بئر مهجورة. (هذا اجتهاد طبعاً لأن أحداً لم يشاهد الشاب حياً بعد أن ذهب للبحث عن أخته، ولكن من المؤكد تقريباً أن هذا ما حدث). فنزل الأخ إلى البئر دون حبل ودون أية وسائل تمكنه من الخروج منه. وما لبث أن فقد وعيه وسقط إلى جانب أخته.

ونزل الأخ الثاني، ولكن بعد وصوله إِلى قعر البئر وجد أن الحبل أقصر مما يجب بثلاث أو أربع أقدام، فنادى على الرجال كي ينزلوا الحبل أكثر ليتمكن من ربط جثة أخته ففعلوا. لكنه فقد وعيه قبل أن ينهي ربط الجثة. وما إِن أحضر حبل آخر حتى نزل الأخ الثالث بعد أن طلب ربطه تحت الإِبطين لكي يسحبوه إِذا بدأ يفقد الوعي.

وكان الأخ الثاني لا يزال يتنفس فأخرج أولاً، ثم أخرجت الأخت، ثم الأخ الأول، وبدت علامات الإِعياء على الأخ الثالث فتم سحبه بسرعة. وكان هذا هو الأخ الذي استعاد وعيه عند وصولي.

ولم يستعد الأخ الثاني وعيه رغم أنه كان يتنفس ومات بعد وصولي بنصف ساعة. وهكذا فقد أخوان حياتهما في محاولتهما البطولية – لكن سيئة التنظيم – لإِنقاذ أختهما الصغيرة.

والحقيقة المثيرة هي أن الحفرة كانت بئراً ولم تكن مرحاضاً. وكانت البئر جافة، ولكن كانت في قعرها بقايا نفايات وأوساخ. ويمكننا

التخمين بأن البنت كانت تلعب حول البئر عندما فقدت توازنها وسقطت فيها. وقد استغربت كيف أن بئراً كهذه قد ولدت هذه الغازات السامة.

وقد مررت بعد بضعة أسابيع بقرب البئر فوجدتها غير مغطاة، رغم أن تغطيتها أو ردمها – وهذا أفضل – أمر سهل. ويصعب على الغربي فهم هذه اللامبالاة المنتشرة بين العرب. فحضارتنا قائمة أساساً على الوقاية والاحتياط[1].

وكل حادث عندنا يؤدي إلى سعي دؤوب للحيلولة دون وقوع حادث مماثل له. وتنتشر في مصانعنا اللافتات المكتوب عليها: «السلامة أولاً» والتي تحذر العمال من المخاطر المحتملة. ويمكنني الاستطراد في الكلام عن هذه النقطة إلى ما لا نهاية.

ولم تكن الوقاية والحيطة متبعتين في الجزيرة العربية حيث كانت الأمور متروكة على غاربها. ومن المرجح أن الدين الإسلامي القائل بالقدرية يشكل السبب الرئيسي في عدم المبالاة السائد. فما هو «مكتوب» سيحصل وليس هناك مهرب من «القدر». ويبقى للمسلم الأمل الغامض بأن «الله سيرفق بنا». وقد تشبع عقل العربي تماماً بهذا الفكر حتى أصبح يستقبل مصائب الحياة وأفراحها بهدوء. ومن الواضح أن الوقاية والحيطة تكونان غير منطقيتين في ظل هذا النوع من التفكير.

ومما يعزي النفس أن نعلم أن تغيراً تدريجياً قد طرأ على نمط التفكير هذا خلال السنوات القليلة الماضية. فهناك الآن مقدار من

---

(1) نبرة اللامبالاة واضحة لدى الكاتب، وكذلك عدم الاحتياط في المقارنة.

التنبيه واليقظة محل الخمول واللامبالاة القاتلة. وقد ازداد تأثير الطب الحديث – ومفتاحه «الوقاية» – في أوساط الكويتيين. وأصبح التطعيم والتلقيح أكثر انتشاراً. وأصبح التجار يستصدرون بوالص تأمين على ممتلكاتهم تحسباً لأية أخطار محتملة[1].

ولا بد في الختام، من الإشارة إلى أنه لم يمت أي عامل من عمال تنظيف المراحيض منذ وقت طويل، ربما نتيجة للتغيير في النظرة إلى الأمور التي ذكرتها الآن.

ولنأمل بأن يتحرر العرب قريباً من الإيمان القاتل بـ«القدرية» والذي يمثل العدو الشرس للتقدم الفعلي[2].

غزو الجراد

نزلنا ذات مرة ضيوفاً على الشيخ مبارك في معسكره في الصحراء على بعد عشرة كيلومترات من الكويت، عندما قطعت زيارتنا أسراب كثيفة من الجراد زحفت علينا واضطرتنا إلى الرحيل من المعسكر، وقد أكل الجراد كل ما صادفه في طريقه وكل ما حط عليه بما في ذلك الطعام والملابس وحتى الخيام نفسها، وكانت مغادرة المعسكر نزوحاً فعلياً بالنسبة لنا إذا تركنا المكان بأقصى سرعة.

(1) يبدو لنا هذا نوعاً من التناقض في ملاحظات المؤلف، إذ كيف أتى التغير في نمط التفكير القدري الذي يرفض الوقاية والحيطة؟

(2) يتضح هنا عدم فهم الكاتب للقدرية في الإسلام، وخلطه بين أفكار الناس وعاداتهم وبين تعاليم الدين الصحيح.

وزارنا الجراد مرتين في تلك السنين المبكرة. جاءت في المرة الأولى أسراب طائرة حجبت نور الشمس وبقيت في المنطقة حتى وضعت بيوضها والتهمت كل ما يمكن التهامه في الصحراء. ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا الصحراء وقد تحولت إلى بساط أخضر براق، وأدركنا أن البيوض قد فقست وأن الجراد بيننا.

ومن الصعب المبالغة في وصف البؤس الذي سببته هذه الحشرة للكويت وضواحيها. فقد هاجمنا الجراد الزاحف بأسراب لا تحصى يتألف كل سرب من نحو عشرة آلاف جرادة، وكان يتجه شرقاً باستمرار. كما كان بالإمكان مشاهدة أجنحة الجراد وهي في بداية نموها. ثم وهي تكبر أسبوعياً وحتى تكتمل في الأسبوع السادس حيث يتمكن الجراد من الطيران بعيداً. ويحدث أثناء هذه الأسابيع أن تأكل الأسراب الأصلية التي تضع البيض كل ما في الصحراء، بينما تترك للأسراب المولودة الاكتفاء بأكل كل ما نما خلال تلك الأسابيع، وغالباً ما يكون ذلك نباتات صغيرة.

ويهاجم الجراد، أثناء زحفه على المدينة، الحدائق فيأكل كل ما فيها من بطيخ وباذنجان وطماطم وغيرها. وكان المزارعون يعملون ليل نهار في إقامة حواجز من التنك اللماع المأخوذ من صفائح الكاز. وعندما تنفد هذه الصفائح كانوا يستعملون الورق اللماع، وبالتالي كان هناك إقبال كبير على نسخ المجلات الأجنبية مثل مجلة «أخبار لندن المصورة» (ذي إيلستراتد لندن نيوز) ومجلة

«المحيط» (سفير) وغيرهما. فالجراد لا يقوى على تسلق الجدران الملساء.

وعندما وصل الجراد إلى سور المدينة لم يحاول أن يلف حوله، بل تسلقه رأساً. وكان علو طبقات الجراد في بعض أنحاء السور يبلغ قدماً، وأخذ الرجال يحرقونه بالمشاعل وقُدِّر ما حرقوه بالملايين.

كما غزا الجراد الدكاكين في السوق وأكل كل شيء تدخل فيه مادة السليولوز[1]. وسارع الباعة محاولين إخفاء بضائعهم في صناديق وأدراج وتغليفها بصفائح التنك وبالورق اللماع.

وكان الجراد حين يصعد وينزل الجدران غير المغطاة يتركها في حالة من العفن والقذارة التامة. أما وجود الجراد في المنزل، فكان يجعل الحياة فيه لا تطاق. وكان المرء حين يدخل غرفته ليلاً ويجد مخدته مغطاة بالجراد الذي يفرز سائلاً لزجاً أخضر اللون فوقها وفوق كل ما يحيط به يشمئز إلى حدّ يصعب وصفه بالكلمات.

وبعد أن يلتهم الجراد كل ما توافر من طعام ومواد. كان يتحول إلى أكل بعضه البعض. وكان من المنفر رؤية ثلاث أو أربع جرادات يسحبن جرادة ضعيفة وينشرن أرجلها ثم يبتلعنها بسرعة فائقة.

وقد فرحنا فرحاً لا يوصف عندما اكتملت أجنحة الجراد وطار بعيداً عنا، رغم أنه خلف الدمار وراءه! فقد أكل الجراد حتى سعف

(1) السليولوز: مادة تؤلف الجزء الأساسي من جدران خلايا النبات.

النخيل فبدت كأذيال الخيول الحليقة والمعلقة على عمود، وفقدت الطرفاء[1] ماءها وماتت الخرفان والماعز جوعاً بينما جاعت الجمال.

ولا عجب أن العبرانيين كانوا يرتعدون من الجراد: «جيشي العظيم الذي أرسلته إليكم».

وأفضل وصف كتب حول طاعون الجراد جاء في كتاب جويل، الفصلين الأول والثاني:

«وغزت أرضي أمة قوية لا يمكن عدها، وأسنانها كأسنان الأسد».

«فسد الحقل، والأرض في حداد فقد ضاع القمح».

«كيف تئن الوحوش: قطعان محتارة لأنها لا تجد المرعى».

«يوم مظلم وحزين.. قوم أقوياء وعظام».

«النار تلتهم ما أمامهم.. وخلفهم أرض عراء جدباء، ولن يفلت منهم شيء».

«إن ظهورهم كظهور الخيول، وكالخيالة سيجرون».

«سيركضون كالرجال الأقوياء: ويتسلقون السور كالمحاربين، وسوف يدخلون من النوافذ كاللصوص».

وهذه بعض الدرر من كتاب جويل، ولكن كل بيت فيه يستحق الاستظهار. والفصل في الواقع قطعة مأثورة عن الجراد.

وما زال الجراد الناضج ومكتمل الجناحين يعتبر أكلة شهية عند العرب. فهم يسلقونه ويضيفون إليه قليلاً من الملح ثم يتركونه يجف.

(1) الطُرفاء: شجرة جنبية نحيلة الأغصان.

ويكون طعمه عندئذ كطعم الكستناء المشوية. ويجري جمع الجراد من الصحراء وجلبه بكميات كبيرة إلى المدينة حيث يوضع في سلال ويعرض للبيع في السوق. وقد أكل يوحنا المعمدان (أحد أتباع المسيح ورفيقه) الجراد مع العسل. وذكر الجراد في كتاب لفيتيكوس على أنه طعام حلال. ووصف الجراد في هذا الكتاب كما يلي: «المخلوقات الطائرة الزاحفة ذات الأرجل التي تعلو القدمين لتتمكن من القفز على الأرض بوساطتها». (لفيتيكوس: 11:21 و22).

وقد باشرت «لجنة الجراد» برئاسة البروفسور يوفاروف من المتحف البريطاني منذ عشرين سنة إجراء بحث دقيق في الجزيرة العربية حول الجراد، كما قامت في الوقت نفسه باتخاذ الإجراءات الواقية منه والمؤدية لتدميره. وما زلنا نأمل في أن تكلل جهودهم بالنجاح لتخليص الجزيرة العربية من هذا البلاء المدمر.

الكويت تنشىء مستشفاها ومدرستها

ومع توسع خدماتنا الطبية وازدهارها وازدياد شعبيتها، ارتفعت في الكويت أصوات تنادي بعدم اعتماد البلد على الأطباء المسيحيين وعلى المستشفى المسيحي في معالجة مرضاها. ودعا أصحاب تلك الأصوات إلى إنشاء مستشفى كويتي وإلى إحضار طبيب مسلم لإدارته والإشراف عليه.

وتم في أواخر عام 1914 أو أوائل عام 1915 تشكيل جمعية لتحقيق هذا الهدف أطلقت على نفسها اسم «الجمعية الخيرية الإسلامية الكويتية». واختارت اللجنة منزلاً فسيحاً على البحر كمقر للجمعية، وقامت بتأثيثه كمستشفى وكعيادة. كما قامت بشراء الأجهزة والأدوات الطبية والأدوية. واستقدمت بعد ذلك طبيباً تركياً للإشراف على المستشفى.

ولم ينجح مشروع الجمعية بتاتاً. فقد قيل إن الطبيب كان يسرف في الشرب، وإنه لم يكن كفؤاً وكان كسولاً ويكره العمل.

ولم يكن أي من أعضاء الجمعية الذين أسسوا المشروع على دراية بالطب، ولا بمهنته الطبية، وبالتالي كانوا عاجزين عن الإشراف على مشروع من هذا النوع. وأخيراً، لم يكن الشيخ مبارك متعاطفاً مع المشروع. فقد كان يعتقد أن الكويت ليست مهيأة بعد لإقامة مشروع بهذا الطموح. وكان، بالطبع محقاً كل الحق في اعتقاده هذا.

وتأزمت الأمور عندما جرى اتهام الطبيب التركي بارتكاب خطأ مهني في عمله. فطلب الشيخ مبارك الرجل وأمره بمغادرة الكويت. وكانت تلك نهاية ما كنت أسميه «مستشفى المعارضة». ولم يسبب لنا ذلك المستشفى أي ضرر. وقد أظهر مستواه المتدني، في الواقع، مدى ارتفاع مستوى مستشفانا. وكانت المقارنة بين المستشفيين خير دعاية لنا.

وقد كتب آخر فصول القصة في الثاني من مايو عام 1916، بعد مضي وقت طويل على إغلاق «مستشفى المعارضة». (وكان الشيخ مبارك قد توفي منذ ستة شهور).

فأثناء زيارة أحد الشيوخ الشبان لي أثيرت مسألة «مستشفى المعارضة» بشكل عرضي. وقال لي الشيخ أثناء تبادل الحديث إن مبنى «مستشفى المعارضة» مليء بالأثاث والمعدات والأجهزة، ثم سألني: «ألا ترغب في أخذها كلها؟ إنها تهترىء ولا ينتفع بها أحد».

وشكرته على عرضه وأعربت عن قبولي للعرض. وحضر في اليوم التالي إلى مستشفانا موكب من الرجال والحمير المحملة بكل أثاث وتجهيزات «مستشفى المعارضة». ومن بين الأجهزة التي حصلنا عليها جهاز (ميكروسكوب) ممتاز، رغم أنه غير معد لأداء عمل المستشفى لأنه لم يكن مزوداً بعدسة خاصة بالغمر في الزيت. وكان المجهر لا يزال في علبته وبدا واضحاً أن العلبة لم تفتح. والمجهر موجود الآن، حسب ما أعلم، في مدرستنا في البصرة حيث يستعمل في الأعمال المختبرية البسيطة. أما بقية المعدات والأدوات فبدا واضحاً أنها قد اختيرت من قبل رجل لا تتوافر لديه المعرفة اللازمة لشراء المعدات والأدوت الطبية.

وكانت المحاولة الأصلية لبناء مستشفى كويتي عبارة عن طموح كبير تم تحقيقه الآن، عام 1950، بشكل لم يحلم به رجال عام 1914. وقد شهد عام 1914 بداية تنبه عامة الناس لاحتمال وجود النفط في

بلدهم. فقد بدأ الجيولوجيون مسحهم للكويت في ذلك العام. ومن المشكوك فيه أن يكون أي إنسان قد فكر حينئذ بوجود هذه الكميات الهائلة من النفط في الكويت، والتي اكتشفت منذ بضع سنين. ولم يكن لدى الكويت مال وفير عام 1914.

ولدى كويت اليوم مستشفى مدينة عظيم المظهر. وقد كلف بناؤه مبلغاً كبيراً من المال، ولكن الكويت اليوم غنية. فعائدات النفط تكفي لسدّ كل احتياجاتها ومتطلباتها.

وتشبه قصة بداية نشاطنا التعليمي في الكويت وتأثيره على المدينة قصة نشاطنا الطبي إلى حدّ كبير. وقد شعر زميلي القس أي.أي. كالفرلي منذ إرساله إلى الكويت عام 1912 بأهمية النشاط التعليمي الحديث، ولم يكن هناك تعليم حديث في الكويت في تلك الأيام. وكان النشاط التعليمي يقتصر على المدارس القرآنية.

وقد ازدهرت مدرسة الدكتور كالفرلي منذ إنشائها، فقد أعطى للأولاد العلم الذي كانوا يبغونه، وبالتالي كان نجاحه حتمياً. وكان أثار حساسية أوساط معينة في الكويت. فأخذ هؤلاء يقولون: «لا يمكننا لا نقبل قيام المبشرين المسيحيين بتعليم أبنائنا. وقبل أن نعي حقيقة ما يجري يصبح أولادنا مسيحيين. إننا نقوم بمخاطرة ليس هناك ما يبررها، يجب أن ننشىء مدارسنا الحديثة الخاصة بنا».

وكان المحرض الرئيسي زعيم عائلة كويتية كبيرة، وقد وضع كل ثقله في الميزان ضدنا. ونظم الرجل حملة لجمع التبرعات تمكن

بنتيجتها من إنشاء مدرسة المباركية. وما زالت هذه المدرسة تنمو وتزدهر.

وكان أول مدير للمدرسة مصرياً، وكانت نظرته للأمور عصرية ومتقدمة، بل في الواقع عصرية جداً بالنسبة للكويت. فقد علم الكويتيين أن الأرض كروية، وأنها تدور حول الشمس، وكل هذه الأمور المبدئية التي نسيناها منذ زمن طويل والتي كانت موضع جدال لا ينتهي في الكويت.

وقد أثارت التعاليم الجديدة المحافظين ودفعتهم للتنديد بكل الهرطقات الموجودة في تعليم المدير المصري. واضطر المصري في النهاية إلى مغادرة البلد، واستقدم مكانه تركي قديم صاحب صوت جهوري من أزمير. وقام التركي بتدريس الأفكار البالية بالطرق القديمة. وأشبعت رغبة النقاد وتابعت المدرسة طريقها الذي يعتبر نسخة طبق الأصل عن المدارس السابقة.

ولكن المدير المصري انتقم بدوره، بعد بضع سنين، إذ تمت إعادة النظر في المنهج الدراسي وتم تغييره نحو الاتجاه الحديث. وأصبح المصري مشهوراً، وهو الآن سفير لدى الحكومة البريطانية من قبل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود. وقد احتل هذا المنصب لعدة أعوام وأثبت أنه دبلوماسي قدير.

ومن الطريف أن نذكر أننا كنا نعرض كرة جغرافية أرضية صغيرة في «بيت الكتاب المقدس» الذي افتتحناه في الكويت. وقد

أثـارت هذه الكرة جدلاً لا نهاية له من جانب الـزوار، وكـان الجدل يحتدم أحياناً، فكان أحد الزوار عادة يسأل: «هل تصر على أن الأرض كروية؟». ويتفجر الجدال، ففي تلك الأيام كان القول بأن الأرض كروية يعتبر خروجاً على الدين. واضطررنا أخيراً إلى إخفاء الكرة الجغرافية الأرضية تجنباً للمشاكل.

وقد تغيرت الأمور كثيراً خلال السنين الماضية. فالكويت تمتلك اليوم عام 1950 دائرة تعليم ممتازة تشرف على عدة مدارس ليست للأولاد فقط وإنما للبنات أيضاً. وتهتم هذه المدارس بتعليم العرب والإيرانيين السنة منهم والشيعة. وأصبح التعليم في الكويت يقف على قدميه اليوم، ولكن يجب ألا ننسى أن الدكتور كالفرلي كان الرائد في هذا المجال.

وقد أغلقت مدرسة كالفرلي لأسباب اقتصادية ولكن بعد أن أتم نشر بذوره وزرع نبتته التي يشاهد الجميع ثمارها حالياً. ومع ذلك، فمن المؤسف أنه جرى إغلاق «مدرسة الكويت» التي قدمت خدمات ممتازة بإدارة الدكتور كالفرلي والدكتور بارني. ويتصف التلاميذ الذي درسوا في مدارس إرساليتنا بشخصية وسلوك مميزين. فنفوذ جون فان اس وفرد بارني وادرين كالفرلي يترك أثره دائماً على كل تلميذ يلقنه.

وإنني أعتقد أن الإرسالية ارتكبت خطأً هائلاً عندما قامت بإغلاق مدارسها في البحرين والكويت. فليس هناك في الدنيا تعليم

أفضل من التعليم المسيحي وليست هناك كارثة في الدنيا أكبر من تحويل مدارسنا في أمريكا وإنجلترا إلى مدارس علمانية.

أخيراً، دعونا نتذكر بوضوح أن المبشرين هم الذين وضعوا أسس كل النشاط الطبي والنشاط التعليمي الذي تسطع أنواره فوق الكويت اليوم.

كلمة وفاء للإرسالية العربية

إن لمهنة الطب في الجزيرة العربية، كما في معظم البلدان، مكانة خاصة، وهناك مثل عربي يضع الطب قبل الدين[1]. وحتى كلمة دكتور بالعربية (حكيم) تعني الرجل الحكيم. وهكذا فالطبيب في الجزيرة العربية رجل معتبر يستشيره الناس ويستمعون إلى نصيحته، وله نفوذه في المجتمع وأمامه عدة فرص للتأثير على الرأي العام ولوضع أسس التقدم المسيحي بطريقة غير مبتذلة تقضي على التعصب الديني والتمييز العنصري، وأن إمكانات عمل الطبيب المسيحي للخير في الجزيرة العربية، إذا توافرت لديه الشخصية الملائمة، إمكانات غير محدودة.

وقد جاءت الافتتاحية التالية في مجلة الإرسالية العربية الفصلية «الجزيرة العربية المهملة» عدد 142 – يوليو – أغسطس – سبتمبر عام 1927: «ألقى السير أرنولد ويلسون، المندوب السامي السابق

(1) لم يذكر لنا الكاتب هذا المثل. وما ذهب إليه هنا هو مبالغة غير علمية.

في العراق وصاحب الخبرة السياسية الطويلة في الشؤون السياسية للخليج «الخليج الفارسي»، محاضرة في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن في يناير حول موضوع «السياسة في الخليج» «الفارسي»، ونحن ننقل مقطعاً من باب الشرق الأدنى والهند الذي علق فيه حول عمل الإرساليات في الخليج والعراق:

«لا أود أن أتكلم عن الخليج «الفارسي» دون أن أسمع شهادة لصالح العمل الرائع الذي يقوم به المبشرون[1]. وأنا لا أقول إنهم يربحون المهتدين إلى المسيحية بأعداد كبيرة، ولكنهم نجحوا - بمساعدة المستوى الرفيع من الاستقامة الذي أظهره المسؤولون والتجار البريطانيون - في إحداث تغيير عميق في النظرة العربية إلى المسائل الأخلاقية. فالعربي محمدي أولاً وعربي ثانياً، مثل الشعوب الإسلامية كافة، وهو يعتبر الأوروبيين مسيحيين قبل أي شي آخر. وهو يعرف، ربما أفضل مما نعرف نحن، بأن جذور تصرفنا تكمن في ديانتنا. وهو يحترم تصرفنا أكثر من احترامه لتصرفه، وهو لا يحتقر الذين ينذرون حياتهم لنشر الدين المسيحي بالمثل والتعليم، بل يقدرهم ويحترمهم كثيراً. وليس هناك نفوذ في الخليج «الفارسي» أقوى من نفوذ المبشرين في ما يتعلق بمسائل الخير، ولا يحترم الناس أي أوروبي مثلما يحترمون المبشرين أمثال زويمر وفان أس وهاريسون، وماليري، أما الذين يشجبون

(1) أنظر ملحق رقم 4.

الإرساليات الأجنبية فهم غير منصفين مع أنفسهم ويضرون بسمعتنا الطيبة».

وكم ترقص قلوب الأطباء بينت وهاريسون ودام فرحاً وهم يفكرون بالكويت والرياض وعنيزة. فمجرد إدراكهم بأنهم فتحوا أبواباً مغلقة لقرون، مكافأة تستحق جهد أي إنسان لأنها مكافأة الرائد التي تضعه في مصاف ليفينغستون وهنري مارتن، وروبرت هاريسون وكل هؤلاء الرجال العظام.

والمكافأة هنا أكبر لأن العمل يتم بدفع قوة الحب. فهؤلاء الرجال لم ينطلقوا بحثاً عن الشهرة والثروة، وإنما تخلوا عن الشهرة والثروة وتبعوا الرب. وقد أثبتوا حقيقة الوعد «في هذه الدنيا مائة ضعف»، وهم حتماً سيثبتون فيما بعد الجزء الثاني من الوعد المزدوج.

ملاحق

ملحق (1)

إن مراقبة الدقة التي يستخدم بها صانع السفن الكويتي أدواته تعتبر درساً في حدّ ذاتها فهو يضرب ضربات متناهية الدقة على مساحة صغيرة تبلغ جزءاً من البوصة، وبعد أن ينتهي من عمله على بدن السفينة الجاهز نجد سطحه مصقولاً وكأن آلات دقيقة قد قامت بالعمل وليست يداً بشرية. ويستخدم صانع السفن أدوات محدودة تتألف من قدومين أو ثلاثة ذات أحجام متفاوتة ومطرقتين أو ثلاث ذات أحجام متفاوتة أيضاً، والثقاب المقوس الشرقي المعروف، ومنشار أو منشارين.

وتصنع كل المسامير المستعملة يدوياً من الحديد المطاوع. حيث يقوم الحداد بطرقها مسماراً مسماراً. وهذه المسامير كبيرة إذ يتراوح طول كل منها ما بين تسع بوصات وثلاث أقدام، وهي مربعة الشريحة وتنتهي برأس كبير أشبه بالفطر. ولا يستعمل مسمار البرشام في بناء السفن، وإنما يجري طرق المسامير العادية في ثقوب محفورة بدقة متناهية، ثم تلوى من الداخل بعد أن يتم إدخالها في الثقوب، وربما يكون استعمال المسامير العادية مصدر ضعف للسفينة لأن اصطدام الأمواج بجوانبها حين يكون البحر عاتياً يسبب تسرباً بسيطاً

من خلال ثقوب المسامير، وهذا على الأقل ما أخبرني به بحارون إنجليز. ويعتبر صانع السفن الكويتي هذه التهمة مردودة وباطلة.

وتصنع دعامات هذه السفن – وهي عادة كثيرة – من الأقواس الطبيعية. ولا تسير هذه السفن بقوة الدفع البخاري. ويبدو تركيب هذه الدعامات فوق جسم السفينة المقوس مستحيلاً ولكنه في الواقع يتم بسهولة.

ويعتبر بناء السفن في الكويت، في الواقع مسألة غريزية، ولا يدرك صانعو السفن الكويتيون مدى مهارتهم. وصناعة السفن تراث ورثة الكويتيون جيلاً بعد جيل. ويستورد كل الخشب المستعمل في بناء السفن من ملابار في الهند، وتقوم السفن الكويتية بنقله من ملابار إلى الكويت ويستعمل خشب «التيك» في صنع أرضية السفينة وجوانبها، بينما يستعمل خشب الأدغال للدعامات ولرافدة القص ومقدمة السفينة ومؤخرتها – رغم أن هذه الأجزاء الثلاثة الأخيرة تصنع أحياناً من خشب التيك. ويذكر الكُتّاب والقصاصون أحياناً أن صواري السفن تصنع من خشب التيك، ولكن هذا ليس صحيحاً. فخشب التيك ليس مرناً، وهو ينكسر بدلاً من أن ينحني إذا استعمل كصارية وخشب الصواري خشب عادل خال من العقد ويكون لونه زهرياً عند قطعه ثم يصبح كلون الكستناء الأسباني. وخشب صواري السفن الكبيرة باهظ الثمن، إذ تكلف الصارية الرئيسية مائتي جنيه استرليني وربما أكثر.

وكانت كل الحبال، العادية والضخمة التي تستعمل في شد السفن

إلى البر، مصنوعة من ألياف النخيل بوساطة آلات بدائية بالإمكان مشاهدتها على طول الساحل في العام 1911 أما اليوم فنادراً ما يشاهد المرء آلات صنع الحبال هذه، لأن كل الحبال أصبحت تستورد من الخارج وهناك جزء واحد من النخلة يستعمل لصنع الحبال وهو الفروع الطويلة الخشنة التي تحمل عناقيد البلح. ويجري عادة طرق هذه العناقيد بالمطرقة إلى أن تصبح رخوة ويسهل تفريغها. وتكون الحال التي تصنع من فروع النخل قوية وخشنة وقاسية على اليدين خاصة عدما تكون جديدة.

وتصنع الأشرعة يدوياً بالطبع. ويقوم صانعو الأشرعة برسم تصميم تقريبي للشراع المطلوب على الأرض، توضع على أساسه قطعة من قماش القنب وتقطع بشكل متواز إلى قطع عرض كل منها ثلاث أقدام ثم يقوم الخياطون بوصل القطع المطلوبة بالإبر بسرعة عجيبة. وعندما يكون الشراع كبيراً يجري تشغيل عدد كبير من الخياطين في حياكته. وغالباً ما ينتهي العمل في الشراع في يوم واحد ولم أشاهد أي شراع متروك ليلاً لإتمامه صباح اليوم التالي إلا في مناسبات نادرة.

ويبدو القماش المستعمل في الكويت هزيلاً أو مهلهلاً إذا ما قيس بالقماش المستعمل في الغرب والذي تجري حياكته بشكل متين ومتماسك. ويستورد الكويتيون قماش القنب[1] من الهند وهو رخيص

(1) قماش القنب: قماش تصنع منه الخيام والأشرعة.

نسبياً ويخدم مدة طويلة. وتعتبر أشرعتنا الغربية، في الواقع، أكثر سُمكاً بالنسبة للمراكب الصغيرة. ولا أعرف إلى أي مدى درس المنتجون الغربيون سوق الأشرعة العربية، ولكنني لم أشاهد سوى أشرعة إنجليزية في الكويت كانت أثقل وربما أغلى من الأشرعة الهندية.

ولا يطلي الكويتيون سفنهم بالدهان. فهم يطلون الأجزاء السفلى من جوانب السفينة بمزيج من الكلس وزيت السمك. ويطلون الأجزاء العليا من جوانبها بالزيت فقط. ويضفي منظر السفينة الجديدة بلمعانها وبريقها وبأشرعتها الجميلة البهجة على نفوس محبي السفن وهم يشاهدونها تغادر المياه لأول مرة.

ووحدة القياس المستعملة في سفن الشحن الكويتية هي «كيس الرز سعة 120 (مائة وعشرون) باوند»[1] فتسمع الناس يتكلمون حول مراكب حموله 200 كيس وحمولة 300 كيس وهكذا. أما حمولة السفن العابرة للمحيطات فتتراوح ما بين 1000 و5000 كيس. والبواخر التي تحمل 5000 كيس قليلة، وأغلب البواخر الكبيرة تحمل ما بين ألفي وثلاثة آلاف كيس.

وقد تم منذ بضع سنين بناء سفينة استثنائية كبيرة في الكويت حمولتها 12000 كيس. وكان في السفينة محرك إضافي. ولا أعلم إذا

(1) باوند: رطل إنجليزي يساوي 453 غراماً تقريباً

كانت تلك السفينة مجزية تجارياً. وقد آلت ملكيتها إِلى الملك ابن سعود، والترتيب المتبع عادة في أشرعة السفن في الخليج «الفارسي» يستعمل الشراع مثلث الشكل، مع بعض التعديلات التي تدخل عليه في بلاد الخليج المختلفة.

ويجري تجهيز البواخر العابرة للمحيطات تجهيزاً حسناً للملاحة، ويتم تزويدها بصناديق بوصلة حديثة وبخرائط حديثة أيضاً. ويعرف ربابنة السفن العرب البحار معرفة تامة، ورغم أنهم لا يقرأون الإِنجليزية فهم يستخرجون معلومات كثيرة من الخرائط المكتوبة بالإِنجليزية ويتمكنون من رسم صورة للساحل وتحديد الأعماق بالقامات تحديداً دقيقاً. ويعرف بعض الربابنة العرب كيف يستعملون آلة السدس[1] ولكن سفنهم غير مجهزة بالكرونومتر[2] وبالتالي لا يمكنهم استنباط الخط الطولي إِطلاقاً ولكن معظم ملاحة الربابنة العرب ملاحة ساحلية، وبالتالي فإِن معرفتهم «لامتداد الأرض» وللنجوم الرئيسية تمكنهم من قيادة مراكبهم بدقة لا تُجارى. وأفضل كتاب حول هذا الموضوع الشائق كتاب أبناء السندباد لمؤلفه «آلان فيليير» الذي قام بعدة رحلات بحرية على متن السفن الكويتية، من بينها رحلة مباشرة من عدن إلى ساحل أفريقيا الشرقي. (وسأنهي هذه الأطروحة حول السفن العربية بالإِشارة إِلى الاعتقاد السائد في

(1) آلة السدس: آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة.

(2) الكرونومتر: أداة لقياس الزمن بدقة.

الكويت بأنه إذا قفزت النساء العربيات على عارضة سفينة جديدة فإنهن يضمنّ حملاً فورياً. وأعتقد أن هذا الاحتفال يمارس ليلاً لأنني لم أشاهد أية امرأة تقفز على عارضة سفينة جديدة).

ملحق (2)

توفي الشيخ مبارك الكبير يوم 28 نوفمبر عام 1915، بينما كنت في البحرين لحضور اجتماع إرساليتنا السنوي. وبما أنه كان يسبق عصره بجيل، فلم يقدر عظمته سوى قلة من رعاياه. وكان الشيخ يهتم كثيراً بفن الحرب. وكانت براعته في استعمال الخرائط تذهلني. وحالما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا كان أول عمل قام به مبارك إنزال راية «النجمة والهلال» (العلم التركي) عن سارية قصره ورفع علم أحمر مكانه عليه كلمة «الكويت» بحروف بيضاء وهذا العلم لا يزال حتى الآن (عام 1950) علم الكويت. وكان مبارك يكره تركيا التي كانت خنجراً في خاصرته لسنين طويلة ويتشوق إلى رؤيتها مهزومة هزيمة ساحقة. وقد شعر بمرارة وخيبة أمل كبيرتين عندما سمع بالانتصارات التركية في بداية الحرب. وكم كان سيسعد لو عاش ليرى تغير مجرى الحرب وهزيمة القوات التركية.

وخلف مبارك ابنه الكبير، جابر، ولكنه لم يعش سوى أربعة عشر شهراً إثر توليه الخلافة، إذ توفي في 5 فبراير عام 1917.

وهناك حادثة وقت أثناء حكم جابر ولا تزال عالقة في ذهني. فقد وصل ابن سعود إلى الكويت في 19 نوفمبر عام 1916 على متن طراد بريطاني يصحبه السير برسي كوكس الممثل الأول للحكومة البريطانية. وأقام الشيخ جابر حفلة رسمية لهما في اليوم التالي في قصره، قام خلالها السير كوكس بتقليد كل من ابن سعود والشيخ جابر وساماً بريطانياً رفيعاً.

وأحضر الشيخ جابر يوم 21 نوفمبر ابن سعود والشيخ خزعل - شيخ المحمرة - لزيارة مستشفانا - وقام الثلاثة الكبار بعد ذلك بزيارة منزلنا وتناول الشاي معنا. وشعرت أنا وزوجتي بفخر عظيم ونحن نستقبل «سيد الجزيرة العربية» في بيتنا. وما زلت أرى ابن سعود وهو جالس في غرفة استقبالنا وعلى ركبته قطتنا الفارسية البيضاء الجميلة. وما زلت أذكر حديثاً دار بين الثلاثة الكبار حول الشفاء الإلهي. وقد أثار الحديث اهتمامي بشكل خاص لأن ابن سعود كان مؤمناً صادقاً. بينما كان خزعل حسب ما لمست من حديثه، شكوكياً[1] إلى حدٍّ كبير. ولم يشترك جابر في الحديث. وأنا أعتقد أنه لم يكن راغباً في الدخول في جدال مع ضيفيه الكبيرين. وقد اتخذا ابن سعود موقفاً متشدداً في صالح الشفاء الإلهي.

---

(1) الشكوكي: النزاع إلى الشك وخاصة في مبادىء الدين.

خلف الشيخ جابر على عرش الكويت الشيخ سالم الابن الثاني للشيخ مبارك الذي تولى الحكم ما بين عام 1917 و1921 [1].

وكان حكم سالم مضطرباً. فقد اختلف مع ابن سعود العظيم حول مسألة التجارة والضرائب وتخللت أيام حكمه كلها حرب خفية أو علنية مع ابن سعود. وليس هناك أدنى شك في أن ابن سعود كان سيستولي على الكويت لولا المساعدة البريطانية الفعالة جواً وبحراً التي قدمت لسالم. وقد اختلف سالم أيضاً مع الحكومة البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى حول مسألة «التبادل التجاري مع العدو» وكان سالم رجلاً لا يشك في شجاعته ولكنه لم يكن دبلوماسياً.

وتوفي سالم في يوليو عام 1921 وخلفه ابن أخيه أحمد الجابر الابن الأكبر للشيخ جابر. وكان أحمد الجابر بالطبع حفيد الشيخ مبارك. ودام حكم أحمد الجابر أكثر من 28 عاماً. وتوفي في 29 يناير عام 1950. وقد ازدهرت دولة الكويت في عهده ازدهاراً عظيماً. ويرجع ازدهارها أساساً وليس كلياً إلى اكتشاف النفط فيها. ومن الطريف أن نذكر أن الشيخ أحمد قاد بنفسه أول عملية حفر للتنقيب عن البترول في الكويت في 30 مايو عام 1936. وكان أحمد رجلاً قديراً وقد صمد أمام العواصف والمكائد السياسية مرات عديدة وأثبت لأعدائه أنه خصم صعب المنال.

---

(1) انظر الملحق رقم 3.

ملحق (3)

وشيخ الكويت الحالي هو عبدالله السالم المبارك، ابن سالم وابن عم أحمد. ونحن نتمنى له حكماً مزدهراً.

عندما كان السير أرنولد ويلسون مديراً عاماً لشركة النفط البريطانية «الفارسية» والتي تعرف باسم شركة النفط البريطانية – الإيرانية – تبرع بمبلغ 5000 روبية نيابة عن الشركة لبناء المستشفى النسائي التابع للإرسالية في البحرين. كما أرسل 25 جنيهاً كتبرع شخصي منه للهدف نفسه في 11 نوفمبر عام 1925.

ملحق (4)

نشر الدكتور تشامبرلين هذا المقال في مجلة «الجزيرة العربية المهملة» عدد 10، يناير وفبراير ومارس عام 1917. وقد أعيدت تسمية المجلة فأصبحت تعرف بمجلة «النداء العربي» وهي مجلة فصلية خاصة تصدرها الإرسالية العربية.

ملحق (5)

من دواعي سروري العظيم أن أسجل أن المعتمد السياسي البريطاني المذكور كان يتعاطف كثيراً مع عملنا. وقد أعطانا في 30 أكتوبر عام 1915 ألف روبية من أجل بناء جديد في المستشفى الرجالي التابع لنا في الكويت.

الفهارس

1 - فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(خ)

(د)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(هـ)

(و)

(ي)

2 - فهرس البلدان والأماكن والمواضع

(أ)

(ب)